المصطلح اللغوي في القرآن الكريم
ما ورد منه
في سورتي البقرة وآل عمران

الدكتور
محي الدين توفيق ابراهيم
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

مقدمـــة :

في بحث سابق(١) قلنا ان « المقصود بالمصطلح اللغوي أن تجتمع لفظتان فاكثر في تركيب اسنادي أو غير اسنادي فينشأ عن هذا التركيب معنى جديد لا تدل عليه معاني الالفاظ الداخلة فيه كل على حدة » .. وقد رأينا ان هذا المعنى الجديد المولد عن تركيب الالفاظ يسلك سبلا مختلفة في اللغة قبل أن يصل الى معناه الكلي المجرد .. فمما لا شك فيه ان للالفاظ مدلولات أولية وهي في أول نشأتها أقرب ما تكون الى الاصل المادي المحسوس ، ثم تأخذ طريقها في التطور والانتقال في التجريد حتى تصل الى المعاني الكلية المجردة .. فالختم في اللغة الطبع والخاتم هو الطابع ، يقال منه ختمت الكتاب اذا طبعته ، وكل شيء ختمته فقد سددته وربطته ، والختم أيضا التغطية وختم البذر

---

(١) نشر بعنوان المصطلح اللغوي في القرآن الكريم في مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٣٧ الجزء الرابع ١٩٨٦ .

تغطيتـه(٢) . ومن هنـا جاء استعمال القرآن الكريم في قوله تعـالى : (ختم الله على قلوبهم) (٣) بمعنى أنه منعها من الوعي والاستيعاب ، والقلوب عند القدماء أوعية العلم فاذا ختم عليها فقـد سدت وامتنع أن يدخلها شيء . وواضح ان هذا المعنى الجديد المتأتي من اضافة الختم الى القلوب قائم عـلى أساس تشـبيه القلوب بتلـك الاوعية ، وهـذا ما يسـميه البلاغيون بالاستعارة . فالمصطلح ختـم الله على قلوبهـم مصطلح اسـنادي .

وأما غير الاسنادي فقد يتكون مـن مضاف ومضاف اليه أو مـن جار ومجرور . ومثاله قوله تعـالى : (فجعلناها نكالا لما بين يديهـا وما خلفها) (٤) . فمعنى (بين يديها) قبلها وهي عـلى هذا الاساس ظرف زمان . وقد يستعمل هذا المصطلح ظرف مكان ، ولم يستعمل في القرآن الكريم الظرف المكاني (أمام) ، وكل ما جاء بهذا المعنى معبر عنه بالظرف (بين) مضافا الى اليدين(٥) .

ومثال الجار والمجرور قوله تعالى : (وكنتم على شفا حفرة مـن النار) (٦) ، أي كنتم مشرفين على الوقوع فيها قبل ايمانكم ، والشفا حرف كل شيء وحـده(٧) .

على ان أكثر ما ورد مـن المصطلح اللغوي في القرآن الكريم مـن النـوع الاسنادي ، وأكثر الاسنادي فعلـي . الا انه ورد منـه ما هو

---

(٢) ينظر ص١ من هـذا البحث .
(٣) البقـرة /٧ .
(٤) البقـرة /٦٦ .
(٥) ينظر مثـلا الايات ٩٧ مـن البقرة، ٣ آل عمران ـ ٥٧ الاعراف .
(٦) آل عمـران /١٠٣ .
(٧) ينظر ص٦٩ من هـذا البحث .

اسمي كقوله تعالى : (في قلوبهم مرض(٨)) ، اي ان قلوبهم قاصرة عن ادراك الحق لما فيها من شك ونفاق(٩) .

ولابد من تأكيد الفرق بين المصطلح اللغوي والمثل من حيث ان المثل يحكي قصة تتلخص فيه فضلا عن كونه جامدا لا تتصرف الفاظه كقولهم « في الصيف ضيعت اللبن » فانه يحتفظ بصيغة الخطاب للمفردة المؤنثة سواء أكان المخاطب به رجلا ام امرأة ، وسواء أكان مفردا أم مثنى أم جمعا(١٠) .

والمصطلح (Idiom) معروف في علم الدلالة الحديث ، وهو أحد الاشياء التي تجعل من الصعب التفريق بين علم اللغة الوصفي أو التزامني Achronic) وعلم اللغة التعاقبي أو التاريخي Synchronic كما يقول (هوكيت) (١١) ، ذلك لان معناه يتكون عبر مراحل متعددة من تاريخ اللغة ، ولكن هذا المعنى يصبح معروفا في وقت دراسة اللغة . ويقول (بالمر) اننا « لا نستطيع في أية لغة أن نتنبأ ما اذا كان معنى سيعبر عنه بكلمة مفردة أو بمجموعة كلمات(١٢) » . يعني أن مفردة ما في لغة ما قد يؤدى معناها أيضا في هذه اللغة بعدة كلمات . فالفعل (يموت) مثلا يؤدى في الانكليزية بعبارة (Kick the bucket) والمعنى الحرفي لهذه العبارة (يركل السطل) . غير انهذا المعنى مؤدى فيالانكليزية أيضا بمفردة واحدة هي (die) ، ويمكن القول أيضا ان هذه الظاهرة موجودة فيالعربية

---

(٨) البقرة /١٠ .
(٩) ينظر ص٣١ من هذا البحث .
(١٠) ينظر ص٥ من بحثنا المصطلح اللغوي في القرآن الكريم .
11 - Hockett : A Course in Modern Linguistics 303 .
(١٢) علم الدلالة ٩١ .

كما في غيرهـا ٠٠ فالى جانب الفعل) مات) يوجـد المصطلحان (قضى نحبه) و (لقي حتفه) ٠ ويقول (هوكيت) أيضا : « في أية لغة حية تنشأ مصطلحات جديـدة باستمرار ، بعضهـا ينشأ ليستعمل مـرة أو مرتين ثم ينسى، وهناك مصطلحات اخرى تنشأ لتبقى فترة طويلة» (١٣)٠

واللغة العربيـة ان كان تدوينها قـد تم منذ زمن بعيد ، فاننـا لا يزال نجـد مصطلحات تنشأ كل يوم ولا سيما في اللهجات العربيـة الحديثة ٠ ومن حسن الحظ ان كثيرا من هـذه المصطلحات قد دونت قديما وحديثا في كتب الامثـال ، لان الذين تصدوا لهـذا النوع مـن التاليف لم يفرق أغلبهـم بين الامثـال والمصطلحات اللغويـة والاقوال السـائرة والحكم ٠

أثر القراءات في تغيير معنى المصطلح :

مـن المصطلحات اللغوية في القرآن الكريم ما يتغير معناه باختلاف القراءات ، من ذلك قوله تعالى : (قلوبنا غلف) (١٤) ٠ فقد قرئت بسكون اللام وضمها(١٥) ٠ فالقراءة الاولى غُلف بسكون اللام جمع أغلف أي مغلّفة مغشّاة مغطّاة فلا يدخلها العلم٠ والقراءة الثانية غُلُف بضمتين جمع غلاف أي انها أوعية للعلم بزعمهم مستغنية بما فيهـا(١٦) ٠ الا ان هذا النوع من المصطلحات الذي يتغير معناه بتغير القراءات قليل وأغلبها مما لا تؤثر في معناه اختلاف هذه القراءات ومنه قولـه تعالى : (ألا انما طائرهم عند الله) قرئت (طيرهم) (١٧) ٠٠ على أن كتب التفسير التـي تناولت تبيان معاني هـذه المصطلحات ضمن ما بيّنته من معان للتراكيب

---

13 - Hockett : A Course in Moddern Linguistics 303.

(١٤) البقـرة /٨٨ ٠
(١٥) روّى عن أبي عمرو بضمتين، ينظر تفسير الكشاف ١/٢٩٥ ٠
(١٦) ينظر ص٣٩ـ٤٠ من هـذا البحث ٠
(١٧) الاعراف /١٣١ وهي قراءة الحسن، المحتسب ١/٢٥٧ ٠

والالفاظ القرآنية قد اختزنت لنا ثروة كبيرة يستطيع الباحث أن يفيد منها فائدة كبيرة في دراسته لتاريخ اللغة العربية . ولولا هذه الثروة اللغوية التي نجدها في كتب التفسير وغريب القرآن ومعاجم ألفاظه ومفرداته ، لما استطعنا أن نفهم كثيرا من تلك المصطلحات ولظلت مبهمة مجهولة الاصل ، كما نجهل اصول مصطلحات لغوية وتراكيب معنوية وجدناها في كتب اللغة والادب ولا نعلم شيئا عن تاريخها وتطورها .. فهذه الكتب تحفظ لنا قول العرب (بعين ما أرينك) (١٨) . فمعناه كما تثبته هذه الكتب (أسرع) أي ان دلالته انشائية وتركيبه خبري . ونحن لا نستطيع أن نفهم العلاقة بين هذا التركيب من حيث ألفاظه وبين معناه ، غير ان الامر يختلف فيما يخص المصطلحات والتراكيب القرآنية ، لان كتب التفسير قد حفظت لنا ما يجعلنا نفهم تلك العلاقة مهما تباعدت المسافة بين التركيب ومعناه .. فهذه الكتب هي التي جعلتنا نفهم قوله تعالى : (واتخذتموه وراءكم ظهريا) (١٩) حين ذكرت ان (الظهري) هو الجمل الذي يتخذ احتياطا ويكون في آخر القافلة للجوء اليه عند الحاجة(٢٠) . وهي التي عرّفتنا المراد بقوله تعالى : (فقد استمسك بالعروة الوثقى) (٢١) حين ذكرت ان العروة لها معينان أحدهما عروة الكوز التي يمسك بها ، والاخر هو أصناف من النباتات والاعشاب تمتد جذورها في الارض فتصمد في السنين المجدبة لتلجأ اليها الماشية حين لا تجد كلأ تقتات به . ومثل هذا كثير في هذه الكتب والمعجمات العربية مدينة في كثير من موادها وثروتها اللغوية لكتب التفسير وغريب القرآن ومفرداته .

---

(١٨) ينظر المستقصى ص١/٢٢١ وتضيف بعض الكتب لفظة ها هنا الى آخر المصطلح ينظر شرح ابن عقيل ٢/٣٠٩ .

(١٩) سورة هود /٩٢ .

(٢٠) ينظر تفسير الطبري ١٢/٦٥ .

(٢١) البقرة /٢٥٦ .

خطتنـــا :

كنا أشرنا في بحثنا الآنف الذكر الى اننا سنعمد الى تجريد تلك التراكيب القرآنية التي سميناها المصطلح اللغوي وفرّقنا بينها وبين الامثال والاقوال السائرة ، وها نحن نبر بوعدنا بمشيئة الله وعونه . وكان في نيتنا أن نرتب هذه المصطلحات ترتيبا معجميا بحسب ألفاظها، غير اننـــا وجدنا ان ذلك سيوقع القـــاريء والمتوخي لمعرفـــة معاني المصطلحات في لبس وارباك ، فكثير مـن المصطلحات لا يُستغنى بأحد ألفاظه عن سائرها، ولذلك آثرنا ترتيب هذه المصطلحات حسبما وردت في القرآن الكريم مبتدئين بالاول فالذي يليـه .

وفي شـرح معاني هـذه المصطلحات ومدلولاتها واصول ألفاظها ، استعنا بنوعين من الكتب، الاول : كتب التفسير ولا سيما التي تُعنى بالجانب اللغوي وهو مدار بحثنا . وقد اعتمدنا في هذا الصدد على كتابي ابن قتيبـة (تأويل مشكل القرآن) و (تفسير غريب القرآن) ، وتفسير الطبري المسمى (جامع البيان في تفسير القرآن) وتفسير الزمخشري الذي أسماه (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل) ، وتفسير القرطبي المسمى (الجامع لاحكـام القرآن) . وقـد اجتزأنا بهذه الكتب الخمسة لاننـا نحسب انهـا تُغني في رفد ما نحن بحاجة اليـه والا فان كتب التفسير كثيرة ولكـل ميزتـه . وربما استفدنا مـن كتب التفسير الاخرى مشيرين اليـه في موضعه .

والنـوع الاخر مـن الكتب هو المعجمـات وقـد اجتزأنا الموسوعتين المعجميتين المعروفتـين (لسـان العرب) لابن منظـور و (تاج العروس) للزبيدي لاعتقادنا انهما يغنيان عن غيرهما من كتب اللغة ومعجماتها .

وقد أضفنا الى هذين النوعين من الكتب ما أفدناه من كتاب الشريف الرضي المعتبر المسمى (تلخيص البيان في مجازات القرآن) لما أودعه فيـه

من كنوز معرفته ببلاغة القرآن الكريم وعنايته بمجازه ، (والمفردات) للراغب لما وجدناه فيه من عناية بالمعاني التركيبية التي هي مدار بحثنا .

وقد يسأل سائل عن خلو هوامش هذا البحث من الاشارة الى بعض الكتب التي عنيت بالمجاز كأساس البلاغة للزمخشري ، ومن الكتب التي تناولت غريب القرآن .. والجواب اننا آثرنا حصر مصادرنا في تلك الموسوعات التفسيرية واللغوية التي ذكرناها آنفا . وحسبنا أن نعلم ان تلك الكتب وهي كثيرة اما أن تكون قد أخذت مادتها من المصادر التي أشرنا اليها، أو ان هذه المصادر قد استوعبتها استيعابا كاملا فيما استوعبته من كتب اللغة وغيرها .

وحين تناولنا المصطلح آثرنا أن نبين معناه العام أولا موضحين اصول دلالة ألفاظه اللغوية كي يسهل على القارىء الالمام بالعلاقة بين المعنى الجديد المجمل للمصطلح واصول ألفاظه مبينين ـ ما أمكننا ذلك ـ الاسلوب الذي سلكه التطور المعنوي من مجاز مرسل أو استعارة أو كناية. وقد آثرنا أن ندع ما اقتطفناه من هذه الكتب يوضح المعنى ، وهو أفضل في رأينا من أن نعود الى صياغتها صياغة جديدة ، فيتوهم القارىء انها من عندنا ومن بنات أفكارنا ونحن حريصون على هذا الاسلوب لاعتقادنا ان الامانة العلمية توجبه .

وبعد ، فاننا نضع بين يدي القراء هذه المجموعة من المصطلحات اللغوية القرآنية آملين أن نكون قد وفينا بنزر يسير مما يجب علينا ازاء هذا الكتاب العظيم الذي تعجز أن تلم بجميع مكنوناته العقول ، أو ان تحيط بعلمه مهما أودع الله فيها من مقدرة ، ومهما وهب أصحابها من عبقرية .

والله نسأل أن يزيدنا من علمه ، ويكلأنا بشآبيب رحمته انه نعم المولى ونعم النصير .

(ختم الله على قلوبهم) (٢٢) :

أصل الختم الطبع والخاتم هو الطابع ، يقال منه ختمت الكتاب اذا طبعته(٢٣) . وكل شيء ختمته فقد سددته وربطته(٢٤) . والختم أيضا التغطية وختم البذر تغطيته(٢٥) . والقلب عند القدماء وعاء للعلم وظرف للمعرفة ، والختم عليه نظير تغطية الوعاء وربط الظرف فلا يدخلهما شيء مما يستوعبانه . وهذا المعنى محمول على الاستعارة لان القلوب هنا مشبهة بالاوعية والظروف او أي شيء اخر يسد ويختم فلا يدخل فيه شيء وهذا شبيه قوله تعالى: « أم على قلوب أقفالها » (٢٦) . وقد أكد الشريف الرضي أن هذا المعنى استعارة « لان الختم الحقيقي لا يتأتى في القلوب وانما المعنى انه تعالى وسم قلوبهم بسمة تفرق بها الملائكة بين الكافر والمؤمن والمصرّ والمقلع فيذمون العاصي لمعصيته ويمدحون الطائع لطاعته » (٢٧) . وقال الزمخشري : « لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وانما هو من باب المجاز ويحتمل أن يكون من كلا نوعية وهما الاستعارة والتمثيل » (٢٨) . وعند القرطبي أن الختم يكون محسوسا ومعنى .. فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحق ـ سبحانه ـ مفهوم مخاطباته والفكر في آياته ، وعلى السمع عدم فهمهم للقرآن اذا تلى عليهم أو دعوا الى وحدانيته . وهذا ما فهمه من أقوال ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم(٢٩) .

---

(٢٢) البقرة /٧ الانعام /٤٦ الشورى /٢٤ الجاثية /٢٣ .
(٢٣) تفسير الطبري ١/٨٦ .
(٢٤) تفسير غريب القرآن صفحة ٤٠ .
(٢٥) اللسان مادة ختم .
(٢٦) صورة محمد /٢٤ . وانظر ص٣٩ـ٤٠ من هذا البحث .
(٢٧) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص٣ .
(٢٨) تفسير الكشاف ١/١٥٥ .
(٢٩) تفسير القرطبي ١/١٨٦ .

(في قلوبهم مرض) (٣٠) :

أصل المرض النقص، وبدن مريض ناقص القوة ، ويقال مرض فلان في حاجتي اذا نقصت حركته فيها، أو هو الفتور ، فهو في الابدان فتور الاعضاء وفي العين فتور النظر(٣١) .

وأول انتقالة مجازية في معنى المرض قولهم فلان يمرض في حاجتي اذا نقصت حركته فيها ، ثم قولهم فلان يمرض في الوعد وفي القول اذا كان لا يصححه ولا يؤكده(٣٢) ، ثم أطلق المرض على أي نوع من النقص والقصور أو الفتور .. فالقلب المريض قاصر عن ادراك الحق لان فيه شكا ونفاقا .

وقد عدّه الطبري كناية عن تصريح الخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم(٣٣) . وقال الشريف الرضي : المرض في الاجسام حقيقة وفي القلوب استعارة لانه فساد في القلوب ، كما انه فساد في الجسوم وان اختلفت جهتا الفساد في الموضعين . وقد قيل أيضا انما سمي ما في قلوبهم من اعتقاد الكفر مرضا لخروجهم عن صحة الدين كما ان المرض يخرج الاجسام عن حال صحتها وينقلها عن سلامة تركيبها وبنيتها(٣٤) . وقال الزمخشري(٣٥) انه استعير لبعض أمراض القلب كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل الى المعاصي والعزم عليها ، ذلك لان القلب عند القدماء وعاء الادراك ، قيل فان قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم وظروف لما جعل فيها من المعارف بالامور .

---

(٣٠) البقرة /١٠ المائدة /٥٢ الانفال /٤٩ التوبة /١٢٥ الحج /٥٣ النور /٥٠ الاحزاب /١٢، ٣٢، ٦٠ محمد/٢٠-٢٩ المدثر/٣١ .
(٣١) اللسان مادة مرض .
(٣٢) التفسير /لابن قتيبة /٤١ .
(٣٣) تفسير الطبري ١/٩٤ .
(٣٤) تلخيص البيان ص٤-٥ .
(٣٥) تفسير الكشاف ١/١٧٦ .

(ذهب الله بنورهم) (١) :

ذهب في اللغة ضد جاء ، وهو لازم لا يتعدى الا بحرف جر ·· فاذا كان الجار هو الباء فيكون المعنى مصاحبة الذاهب مع ما ذهب به. وعليه قوله تعالى : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب » (٢) · الا أن المصاحبة في قوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) دالة لان معناها لا يستقيم فالله سبحانه وتعالى لم يذهب بالنور مصاحبا اياه ·· والمقصود هو أن الله أزال نورهم ولذلك قال : (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) وفي هذا استعارة لان النور لا يذهب به على الحقيقة بل يخطفا فيتحول الى ظلمة ·· والاصل أن يذهب بالاشياء التي تمسكها اليد ، فاذا ذهب بشيء ذي كتلة وحجم فقد ازيل من موضعه ، وهكذا أصبح الذهاب بالشيء يعني ازالته · « وذهب وأذهب لغتان من الذهاب وهو زوال الشيء » (٣) · قال ابن قتيبة : « أراد مثل المنافقين كمثل قوم كانوا في ظلمة فأوقدوا نارا فلما أضاءت النار ما حولهم أطفأها الله وتركهم في ظلمات لا يبصرون ·· فالظلمة الاولى التي كانوا فيها الكفر، واستيقادهم النار قولهم لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فلما أضاءت لهم ما حولهم واهتدوا وآمنوا خلصوا الى شياطينهم فنافقوا وقالوا: انما نحن مستهزئون فسلبهم نور الايمان وتركهم في ظلمات الكفر لا يبصرون(٤) · وقال بعض اللغويين: ان عدّى الذهاب بالباء فمعناه الاذهاب ، أو بعلى فمعناه النسيان ، أو بعن فالترك أو بالى فالتوجه » (٥) ·

---

(١) البقرة /١٧ـ٢٠ النساء /١٩ يوسف /١٥ الاسراء /٨٦ طه /٦٣ المؤمنون /١٨ـ٩١ النور /٤٣ الزخرف /٤١ ·
(٢) يوسف /١٥ ·
(٣) تفسير القرطبي ٢١٣/١ ·
(٤) التأويل ٣٦٢ ·
(٥) التاج مادة ذهب ·

(والله محيط بالكافرين) (١) :

أصل الحوط حفظ الشيء وتعهده ، يقال حاطه يحوطه حَوطا وحيطة وحياطة(٢) ، فاذا دخلت الهمزة تحول المعنى الى الاحداق بالشيء ، يقال أحاطت به الخيل اذا أحدقت ، ومنه قوله تعالى : « انا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » (٣) .. فالاحاطة هنا على حقيقتها وهي الاستدارة كما يحيط الحائط بالمنزل والسوار بالمعصم . وقد انتقل هذا المعنى الى معنى مجازي، فأصبح يدل على الغلبة والهلاك وهو كثير في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: « والله محيط بالكافرين » وقوله تعالى: «وظنوا أنهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين» (٤) وقوله تعالى: «واحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها» (٥) . وقال ابن قتيبة : « وأصل هذا ان العدو اذا أحاط بقوم أو بلد فحاصره فقد دنا أجله من الهلكة » (٦) .

ومعنى مجازي آخر يخرج عن هذا وهو بلوغ أقصى الشيء وفهمه من جميع نواحيه ، فكل من بلغ أقصى الشيء وأحصى علمه فقد أحاط به علمه وعلما . واستعملت الاحاطة في القرآن الكريم بهذا المعنى .. وقد فسّر به قوله تعالى: « والله محيط بالكافرين » بدليل قوله تعالى:

---

(١) البقرة /١٩ـ٨١ ـ٢٥٥ آل عمران /١٢٠ النساء /١٠٨ ـ١٢٦ الانفال / ٤٧ يونس / ٢٢ ـ٣٩ هود / ٩٢ يوسف / ٦٦ الاسراء / ٦٠ الكهف / ٤٢ـ ٦٨ـ٩١ طه /١١٠ النمل /٢٢ـ٨٤ فصلت /٥٤ الزمر /٣١ الطلاق /١٢ الجن /٢٨ .

(٢) اللسان مادة حوط .

(٣) الكهف /٢٩ . ذكر الشريف الرضي ان في هذه الاية استعارة وهو يقصد تشبيه النار بتمديد الاخبية والاطناب . تلخيص البيان /٢٨ الا ان السرادق لغة هو كل ما أحاط بالبناء .

(٤) يونس /٢٢ .

(٥) الكهف /٤٢ وانظر ايضا البقرة /٨١ يوسف /٦٦ الاسراء /٦٠ .

(٦) التأويل /١٦٧ .

« وان الله قد أحاط بكل شيء علما » (٧) . كما فسّر بمعنى جامعهم ومهلكهم(٨) . وقد يشفع هذا المعنى بلفظ العلم أو بما في معناه ، كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى : (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) (٩) .

(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) (١٠) :

القطع ابانة الشيء من بعضه فصلا(١١) . وهو ضد الوصل . والمعنى المقصود في هذه الآية مجازي .. فهو اما أن يكون قطع الرحم(١٢) وهو مذموم ومنهي عنه ووصلها واجب . والمراد به قطع صلة أهل الرحم من الاقربين وأما أن يكون المراد به قطع ما بين الانبياء من الوصلة والاتحاد والاجتماع على الحق في ايمانهم ببعض وكفرهم ببعض(١٣) .

(ولا تلبسوا الحق بالباطل) (١٤) :

مادة (ل.ب.س) أصل صحيح واحد يدل على مخالطة ومداخلة من ذلك لبست الثوب ألبسه وهو الاصل(١٥) .. هذا ما يقرره المعجميون غير ان ظاهر كلامهم يدل على ان فيه أصلا آخر وهو التغطية. قال الراغب : « وأصل اللبس ستر الشيء . ويقال ذلك في المعاني ..

---

(٧) الطلاق /١٢ .
(٨) تفسير القرطبي ١/٢٢ .
(٩) الكهف /٦٨-٩١ وانظر البقرة /٢٥٥ آل عمران /١٢٠ النساء/١٠٨ - ١٢٦ الانفال . يونس /٣٩ هود /٩٢ طه /١١٠ النمل /٤٢-٨٤ فصلت /٥٤ الفتح /٢١ الطلاق /١٢ الجن /٢٨ .
(١٠) البقرة /٢٧ الانعام /٥٤ الرعد /٢٥ محمد /٢٢ .
(١١) [illegible] مادة قطع .
(١٢) تفسير الطبري ١/١٤٤ .
(١٣) تفسير الكشاف ١/٢٦٩ .
(١٤) البقرة /٤٢ آل عمران /٧١ الانعام /٨٢ .
(١٥) معجم مقاييس اللغة ٥/٢٣٠ .

يقال لبست عليه أمره وللبسنا عليهم ما يلبسون(١٦) . وربما كان هو الاصل ومنه اللباس للثوب وغيره .. وليبس الهودج والكعبة ما عليهما من لباس بكسر اللام(١٧) . ويقال الحُرة الارض التي لبستها حجارة سود(١٨) . وعند أبي عمرو لا يكون معنى التغطية الا بزيادة الهمزة . « يقال للشيء اذا غطاه كله ألبسه ولا يكون لبسه كقولهم ألبسنا الليل وألبس السماء السحاب ولا يكون لبسنا الليل ولا لبس السماء السحاب . ويقال هذه أرض ألبستها حجارة سود أي غطتها(١٩) .

واستعمل اللبس بمعنى الخلط استعمالا مجازيا واستعير للامر اذا اختلط فيقال لبس عليه الامر يلبس (من باب ضرب) لبسا .. ومنه قوله تعالى : (وللبسنا عليهم ما يلبسون) (٢٠) . وأما قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل) فقد ذهب الطبري الى أن معناه لا تخلطوا الحق بالباطل(٢١) . وصرح الشريف الرضي بأنها استعارة والمراد بها ولا تخلطوا الحق بالباطل فتعمى مسالكه وتشكل معارفه(٢٢) . والباء عندئذ صلة عند الزمخشري والمعنى .. ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم حتى لا يميز بين حقها وباطلكم(٢٣) . وقد تكون الباء كما يقول الزمخشري أيضا للاستعانة كالتي في قولك كتبت بالقلم فيكون المعنى « ولا تجعلوا الحق ملتبسا مشتبها بباطلكم الذي تكتبونه » (٢٤) .

---

(١٦) المفردات (لبس) .
(١٧) معجم مقاييس اللغة ٥/٢٣٠ .
(١٨) اللسان مادة (لبس) .
(١٩) اللسان مادة (لبس) .
(٢٠) سورة الانعام /٩ تاج العروس مادة لبس .
(٢١) تفسير الطبري ١/٢٠١ .
(٢٢) تلخيص البيان : ٧
(٢٣) تفسير الكشاف ١/٢٧٦ .
(٢٤) تفسير الكشاف ١/٢٧٧ .

وعلى هذا المعنى قول الخنساء :

ترى الجليس يقول الحق تحسبه
مرشدا وهيهات فانظر ما به التبسا

صدّق مقالته واحذر عداوته
والبس عليه امورا مثل ما لبسا

وقول العجاج :

لما لبسن الحق بالتجنّي
غيين واستبدلن زيدا مني(٢٥)

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) (١) :

التوبة في الاصل الرجوع عن الذنب والعودة الى الله والانابة اليه(٢) . ومعنى تاب الله عليه عاد عليه بالمغفرة(٣) أو أرجعه الى ما يحب ويرضى عما يكرهه ويسخط من معصيته أو رجع عليه بالرحمة والقبول(٥) أو وفقه للتوبة وقيل قبلت منه التوبة(٦) .

وقال الراغب : « والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة .. فالعبد تائب الى الله .. والله تائب على عبده » (٧) .

---

(٢٥) تفسير القرطبي ١/٣٤١ ـ ٣٤٢ .
(١) البقرة /٣٧ ٥٤ ٢٨ ١٦٠ ١٨٧ . آل عمران /١٢٨ النساء /١٧ـ ٢٦ ٢٧ المائدة /٣٩ـ٧١ التوبة /١٥ ٢٧ ١٠٢ ١٠٦ ١١٧ـ ١١٨ طه /١٢٢ الاحزاب /٧٣ المجادلة /١٣ المزمل /٢٠ .
(٢) ينظر اللسان مادة تاب .
(٣) اللسان مادة تاب .
(٤) تفسير الطبري ٦/١٤٩ .
(٥) تفسير الكشاف ١/٢٧٤ .
(٥) تفسير الكشاف ١/٢٧٤ .
(٦) ينظر تفسير القرطبي ٦/١٧٥ .
(٧) المفردات (توب) .

(يسومونكم سوء العذاب) (١) :

السوم البيع أو الرعي وهو أيضا المر السريع(٢) . وفي العين « والسوم أن تجشّم انسانا مشقة وخطة من الشر تسومه سَوما كسوم العالة .. والعالّة بعد الناهلة فتحمل على شرب الماء ثانية بعد النَهَل فيكره ويداوم عليه لكي يشرب » (٣) . وعلى هذا فسّر قوله تعالى في الآية . ومنه قولهم سمته خسفا أي جشّمته اياه(٤) . وهو عند أبي عبيدة وابن قتيبة الايلاء أي يولونكم سوء العذاب(٥) . وهو عند الزمخشري من سام السلعة اذا طلبها(٦) . ومثله قول الراغب : « أصله الذهاب في ابتغاء » (٧) .

والاصح من هذه الاقوال عندي انه من سوم الماشية وهو اكراهها على الشرب ثانية وادامتها على ذلك كي تتعود عليه لان معنى قوله تعالى : (يسومونكم سوء العذاب) أي يكرهونكم عليه ويجشمونكم اياه .. وهذه استعارة لطيفة لان العذاب يُطلب لهم طلبا أو يتكلفون به ويتجشمونه كما تُطلب السلعة أو يتجشم الانسان المشقة أو كما تكره السائمة كي تُعَلّ بعد النَهَل .

---

(١) البقرة /٤٩ الاعراف /٤١ـ١٦٧ ابراهيم /٦ .
(٢) ينظر اللسان مادة سوم .
(٣) ٧/٣٢٠ .
(٤) ينظر اللسان مادة سوم .
(٥) ينظر التفسير ١٧٤ . وينظر التاج مادة سوم .
(٦) ينظر الكشاف ٢/١١١ .
(٧) المفردات (سوم) .

(اتخذتم العجل) (١) :

الاخذ خلاف العطاء وهو أيضا التناول(٢) . واتخذ عند اللغويين والصرفيين (افتعل) من أخذ حصل فيه اعلال وابدال سهلت الهمزة الثانية ثم انقلبت تاء وأدغمت في تاء الافتعال(٣) . وعند أبي علي الفارسي أن تخذ فعل قائم بذاته فلا اعلال ولا ابدال وتخذ الشيء تخذا وتخذا واتخذه عمله(٤) . وسواء الاتخاذ من الاخذ أو التخذ فانه في هذه الآية ونحوها قد خرج عن حقيقته لان المعنى هنا انكم ـ والخطاب لبني اسرائيل ـ جعلتم العجل الها لكم(٥) . ومثله قوله تعالى : (ارأيت من اتخذ الهه هواه) (٦) ومعناه يتبع هواه ويدع الحق فهو له كالاله(٧) . وقوله تعالى : (فاتخذتموهم سخريا) (٨) أي تسخرون منهم اذا كانت السين مكسورة أو تسخرونهم اذا كانت السين مضمومة(٩) . وقوله تعالى: (اتخذوا ايمانهم جنة) (١٠) أي استتروا بالحلف كلما ظهر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على شيء منهم يوجب معاقبتهم حلفوا كاذبين(١١) . وقوله تعالى : (أو نتخذه ولدا) (١٢)

---

(١) البقرة /٥١ ٥٤ ٦٧ ٨٠ ٩٢ ١١٦ ١٢٥ ١٦٥ آل عمران /٢٨ ٦٤ ـ ٨٠ ١١٨ ١٤٠ النساء / ٢٥ ٨٩ ١١٨ ١١٩ ١٢٥ ١٣٩ ١٥٠ ١٥٣ .
(٢) اللسان مادة أخذ .
(٣) تفسير القرطبي ١/٣٩٦ .
(٤) اللسان مادة أخذ .
(٥) تفسير الطبري ١/٢٢٢ . تفسير القرطبي ١/٣٩٦ .
(٦) الفرقان /٤٣ .
(٧) التفسير لابن قتيبة : ٣١٣ .
(٨) سورة المؤمنون /١١٠ قراءة نافع وحمزة والكسائي بضم السين وقرأ الباقون بالكسر . الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/١٣١ .
(٩) التفسير /٣٨١ .
(١٠) المجادلة /٤١٦ .
(١١) التفسير /٤٦٧ .
(١٢) يوسف /٢١ .

أي نتبناه(١٣) ٠

(تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) (١٤) :

التظاهر في هذه الآية وغيرها بمعنى التعاون ٠ وظاهر بعضهم بعضا اعانة ٠٠ والمظاهرة المعاونة وفي حديث علي عليه السلام انه بارز يوم بدر وظاهر أي نصر وأعان(١٥) ٠

وأصل المظاهرة والتظاهر بهذا المعنى من الظهر ٠٠ « فكان التظاهر أن يجعل كل واحد من الرجلين أو من القوم الاخر له ظهرا يتقوى به ويستند اليه(١٦) ٠ والظهير بهذا المعنى أيضا ٠ ومنه قوله تعالى : « والملائكة بعد ذلك ظهير » (١٧) ٠

(وقالوا قلوبنا غلف) :

قرئت بضم الغين وسكون اللام وقرئت بضمهما(١٩) ٠ فالاول جمع أغلف « كأنهما في غلاف لاتفهم عنك ولا تعقل شيئا مما تقول(٢٠) أو هي معصوب عليها(٢١) ٠ والثاني جمع غلاف(٢٢) ٠

والمعنى على القراءة الاولى ان قلوبهم مغلفة أي مغشّاة ومغطّاة لا تعي شيئا ولا تفقه شيئا ، وهي كقوله تعالى حكاية عنهم (قلوبنا في

---

(١٣) التفسير /٢١٤ ٠
(١٤) البقرة /٨٥ التوبة /٤ الاسراء /٨٨ الفرقان /٥٥ الاحزاب /٢٦ سبأ /٢٢ القصص /١٧ ٤٨ ٨٦ ٠
(١٥) اللسان مادة ظهر ٠
(١٦) التفسير لابن قتيبة ٥٧ وينظر تفسير الطبري ٣١٤/١ ٠
(١٧) التحريم /٤ ٠
(١٨) البقرة /٨٨ ـ النساء /١٥٥ ٠
(١٩) قال الزمخشري : الكشاف ٢٩٥/١ وروى عن أبي عمرو قلوبنا غلف بضمتين ٠
(٢٠) تفسير ابن قتيبة /٥٧ ٠
(٢١) تفسير الطبري ٣٢٢/١ ٠
(٢٢) اللسان مادة (غلف) ٠ الكشاف ٢٩٥/١ ٠

أكفه) (٢٣) ٠٠ وهذا المعنى مستعار عند ابن قتيبة من قولهم « غلّفت السيف اذ جعلته في غلاف ، فهو سيف أغلف(٢٤) ٠ وعند الزمخشري مستعار من الاغلف الذي لم يختن أو ان اللام سكنت تخفيفا فهي جمع غلاف(٢٥) ٠ وأيا كان المستعار منه فان المعنى المتحصل واحد ٠

وأما المعنى على القراءة الثانية فهو انهم يزعمون أن قلوبهم أوعية للعلم فهم مستغنون بما عندهم عن غيره(٢٦) ٠ والمعنى على التأويلين مستعار عند الشريف الرضي(٢٧) ٠

والحاصل ان معنى هذا المصطلح انهم لا يعون ولا يعقلون ولا يفقهون ما يسمعون او انهم قد بلغوا من العلم بحيث يستغنون به – في زعمهم – عن العلم الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ٠

(فباؤوا بغضب من الله) (٢٨) :

المعنى انهم احتملوا غضب الله أو رجعوا به أو انقلبوا وانصرفوا يحملونه(٢٩) ٠

وأصل البواء اللزوم وفي الحديث: فقد باء به أحدهما أي التزمه(٣٠) وقيل معناه في الاصل الرجوع فيقال باء كفّى أي صار له كفّي مباءة

---

(٢٣) فصلت /٥ ٠
(٢٤) تفسير ابن قتيبة /٥٧ ٠
(٢٥) الكشاف ١/٢٩٥ ٠
(٢٦) المصدر السابق ٠ الموضع نفسه ٠
(٢٧) تلخيص البيان /٨ ٠
(٢٨) البقرة /٦١ – ٩٠ آل عمران /١١٢ – ١٦٢ المائدة /٢٩ الانفال /١٦ ٠
(٢٩) التفسير لابن قتيبة ١٤٢–١٧٨ اللسان مادة (بوأ) ٠ تفسير الطبري ١/٣٣٠ تفسير القرطبي ١/٤٣٠ ٠
(٣٠) اللسان مادة (بوأ) ٠

أي مرجعا · قال الأخفش وباؤوا بغضب من الله رجعوا به أي صار عليهم(٣١) · وقال الاصمعي « باء بائمه فهو يبوء به بوءا : اذا أقر به· وفي الحديث : أبوء بنعمتك علي ·· وأبوء بذنبي أي التزم وأرجع وأقر(٣٢) · وفي حديث اخر : بؤ للامير بذنبك أي اعترف به · وباء بدم فلان وبحقه : أقر وذا يكون أبدا بما عليه لا له · قال لبيد :

أنكرت باطلها وبؤت بحقها
عندي ولم تفخر علي كرامها(٣٣)

(وأشربوا في قلوبهم العجل) (٣٤)

أكثر المفسرين في معنى هذه الآية على انهم أشربوا حب العجل فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مكانه(٣٥) وهو ما اختاره الطبري ولكنه يذكر معنى اخر لمفسرين اخرين وهو انهم سقوا ماء سحالة العجل(٣٦) ·

وأصل معنى الاشراب المخالطة، وفي اللسان : كل لون خالط لونا اخر فقد أشربه والاشراب لون قد أشرب من لون يقال أشرب الابيض حمرة أي علاه ذلك وفيه شربة من حمرة أي اشراب ورجل مشرب حمرة وانه لسقي الدم مثله وفيه شربة من الحمرة اذا كان مشربا حمرة وفي صفته صلى الله عليه وسلم أبيض مشرب حمرة ·· الاشراب خلط لون بلون كأن أحد اللونين سقي اللون الاخر · وأشرب فلان حب فلانة أي خالط قلبه وأشرب قلبه محبة هذا أي حل محل الشراب(٣٦) ·

---

(٣١) معاني القرآن ٩٩/١ ·
(٣٢) اللسان مادة (بوأ) ·
(٣٣) البقرة /٩٣ ·
(٣٤) تفسير ابن قتيبة ٥٨ · التأويل /٢١٠ ·
(٣٥) تفسير الطبري ٣٣٥/١ ·
(٣٦) اللسان مادة (شرب) ·

فأصل معنى الاشراب اذاً مخالطة لـون بلون حتى يغلب عليـه · والمعنى في الاية ان حب العجل قد خالط قلوبهم حتى أصبح هو الغالب عليها فلا ينازعه فيها منازع · وقد ورد هذا المعنى أي غلبة الحب على ما في القلب وغلبته عليـه في حديث الافك · لقـد سمعتموه وأشربته قلوبكم أي سقيته كما يسقى العطشان الماء ·· ومثله حديث أبي بكر رضي الله عنـه وأشرب قلبـه الاشفاق(٣٧) · فسبيل هذا المعنى فـي انتقاله من مخالطة لون بلون وغلبته عليه الى غلبة حب شيء على القلب سبيل الاستعارة وليس سبيل المجـاز المرسل كما قالوا مفترضين ان المعنى أشربوا في قلوبهم حب العجل فحذف المضاف واقيم المضاف اليـه مقامه كمـا قال الشاعر :

وكيـف تواصـل مـن أصبحـت
خلالتـه كأبـي مَرحَب

أي كخلالة أبـي مرحب(٣٨) ·

وسبيل الاستعارة أقوى وأبلغ لما فيهـا مـن اقامة المشبه مقـام المشبه به حتى يصبح كأنه هو، ولان المراد بها وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبـه فمازجها ممازجة المشروب وخالطها مخالطـة الشيء الملذوذ(٣٩) ·

(نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) (٤٠) :

أصل النبذ طرح ما لا يعتد به، وغالب النبذ الـذي في القرآن على

---

(٣٧) اللسـان مادة (شرب) ·
(٣٨) اللسـان مادة (شرب) ·
(٣٩) تلخيص البيـان /٩ ·
(٤٠) البقرة /١٠١ آل عمران /١٨٧ الانعـام /٩٤ ·

هذا الوجه(٤١) والنبذ الالقاء ومنه نبذ الكتاب وراء ظهره(٤٢) . ونبذ الشيء وراء الظهر مصطلح ويسميه الطبري والزمخشري مثلا يراد به الاعراض عنه والصد والانصراف(٤٣) . والعرب تقول واجه ارادته اذا أقبل عليها بقضائها ، واذا تركها ولم يلتفت اليها قالوا جعلها بظهر . قال الفرزدق :

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي
بظهر فلا يعيا علي جوابها(٤٤)

وفي هذا استعارة كما يقول الشريف الرضي لانهم « غفلوا عن ذكره وتشاغلوا عن فهمه يعني الكتاب المنزل عليهم فكان كالشيء الملقى خلف ظهر الانسان لا يراه فيذكره ولا يلتفت اليه فينظره » (٤٥) .

(وراعنا ليّاً بالسنتهم) (٤٦) :

راعنا من المراعاة وهي المناظرة والمراقبة يقال راعيت فلانا مراعاة ورعاء اذا راقبته وتأملت فعله وراعيت الامر نظرت إلامَ يصير(٤٧) . وقيل هي من المراعاة بمعنى المكافأة(٤٨) . وقيل هي على صيغة فاعل من الرعونة(٤٩) . ونقل عن ثعلب انها كلمة يتسابّ بها اليهود وهي

---

(٤١) التاج مادة نبذ .
(٤٢) اللسان مادة نبذ .
(٤٣) تفسير الطبري ٣٥٢/١ الكشاف ٣٠٠/١ .
(٤٤) اللسان مادة ظهر .
(٤٥) تلخيص البيان /٢٣ .
(٤٦) البقرة /١٠٤ .
(٤٧) اللسان مادة رعى .
(٤٨) المصدر السابق .
(٤٩) المصدر السابق قرئت بالتنوين .

في لسانهم راعنا أو راعونا(٥٠) . وقال الزمخشري هي راعينا(٥١) .

فأصل (راعنا) انها بمعنى انظرنا وأرقبنا أو انتظرنا كما يقول ابن قتيبة(٥٢) ، غير ان اليهود كانوا يسبّون بها الرسول صلى الله عليه وسلم في سرهم فانتهزوا هذه الفرصة ليظهروا مسبّتهم(٥٣) . يدل على ذلك انها في السريانية أو العبرانية راعينا أو راعونا(٥٤) . ولا شك انهم كانوا يشبعون الحركة فتصبح ياء لتشبه الكلمة راعينا التي هي في لسانهم أو يسكنون العين أو يختلسون حركتها فتصبح (رَعْنا) ليميلوا بها الى الرعونة . ودليل ذلك قوله تعالى : (ليّا بألسنتهم) وقوله تعالى : (يحرفون الكلم عن مواضعه) وهذا نوع من التورية ولا شك .

(بلى من أسلم وجهه لله) (٥٥) :

أصل الاسلام الانقياد ، وأسلمت وجهي لله معناه انقدت اليه بلساني وعقدي(٥٦) أو هو الاستسلام لانه من استسلمت لامره وهو الخضوع لامره ، وانما سمي المسلم مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه(٥٧) . والمعنى عند الشريف الرضي انه أقبل على عبادة الله تعالى سبحانه وجعل توجهه اليه بجملته لا بوجهه دون غيره(٥٨) . والوجه

---

(٥٠) اللسان مادتي رعن ورعي .
(٥١) الكشاف ١/٥٣٠ .
(٥٢) التأويل /٣٧٥ .
(٥٣) تفسير الطبري ٥/٧٦ .
(٥٤) قرئت راعونا .
(٥٥) البقرة /١١٢-١٣١ آل عمران /٢٠ النساء /١٢٥ لقمان /٢٢ .
(٥٦) التأويل /٤٧٩ .
(٥٧) تفسير الطبري ١/٣٩٣ .
(٥٨) تلخيص البيان /١٠ .

عند الشريف الرضي استعارة وحقه أن يكون مجازا مرسلا كما بيّن معناه هو وكما حدّه البلاغيون ·

وهذا المصطلح من المصطلحات التي انتقلت من اصولها اللغوية الى معان متطورة ومن ألفاظ عديدة الى لفظة واحدة تتلخص فيها كل المعاني التي احتواها هذا المصطلح ·· فقد كان بدءا مركبا اسناديا يتكون من الفعل (أسلم) والمفعول به (وجه) والجار والمجرور ولفظ الجلالة ، أو رب العالمين أو غيرها من أسماء الله الحسنى ، كما في الآية التي نحن بصددها ، (بلى من أسلم وجهه لله) وغيرها من الايات ، ثم استعمل هذا المصطلح أيضا محذوفا منه المفعول به (وجه) كقوله تعالى : « قال أسلمت لرب العالمين » ثم استعمل الفعل (أسلم) مجردا من المفعول به والجار والمجرور للدلالة على المعنى نفسه كما في قوله تعالى : « وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا » (٦٠) · ثم بعد ذلك استعمل اسم الفاعل معلقا به الجار والمجرور (له) كقوله تعالى : « ونحن له مسلمون » (٦١) ثم مجردا منه كما في قوله تعالى : « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٦٢) ثم استعمل المصدر (الاسلام) دالا على المعاني التي أشرنا اليها · واسما للدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والانبياء من قبله · وأول ما يرد في القرآن هو في قوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » (٦٣) · وقد وردت لفظة الاسلام في القرآن الكريم محلاة

---

(٥٩) البقرة /١٣١ ·
(٦٠) آل عمران /٢٠ ·
(٦١) البقرة /١٣٣ ·
(٦٢) البقرة /١٣٢ ·
(٦٣) آل عمران /١٩ ·

بالالف واللام(٦٤) أو مضافة الى الضمير(٦٥) في ثمانية مواضع جميعها تدل على الدين الحنيف ، ولم تستعمل متعلقا بها الجار والمجرور أو المفعول به (وجه) .

(وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) (٦٦) .

معنى على شيء على صواب أي انهم ليسوا في دينهم على صواب(٦٧) . ومعناها عند الزمخشري انهم ليسوا على شيء يصح أو يعتد به(٦٨) ، وهو مقارب لقول الطبري . وقال الزمخشري أيضا « وهذه مبالغة عظيمة لان المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، فاذا نفى اطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الاعتداد به الى ما ليس بعده وهذا كقولهم أقل من لا شيء» (٦٩) .

وهذا المصطلح غير الاسنادي (أي شبه الجملة من الجار والمجرور) وقع في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع سُبق في اثنتين منها بفعل النفي (ليس) . وهما قوله تعالى في الاية المذكورة من سورة البقرة ، وقوله تعالى : « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل » (٧٠) . وفي الموضع الثالث سُبق بفعل الشك (يحسبون) وهو قوله تعالى : « فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على

---

(٦٤) آل عمران /١٩ـ٨٥ المائدة /٣ الانعام /١٢٥ الزمر /٢٢ الصف /٧ .
(٦٥) الحجرات /١٧ التوبة /٧٤ .
(٦٦) البقرة /١١٣ المائدة /٦٨ المجادلة/١٨ .
(٦٧) تفسير الطبري ١/٣٩٤ .
(٦٨) تفسير الكشاف ١/٣٠٥ .
(٦٩) المصدر السابق .
(٧٠) المائدة /٦٨ .

شيء » (٧١) . وأفعال الشك أقرب في معناها الى النفي منها الى الاثبات ..

(وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) (٧٢) :

العقب (بكسر القاف وسكونها) وتجمع على أعقاب وأعقُب اخر الشيء وعقب القدم مؤخرها، والانقلاب الرجوع مطلقا(٧٤) . والانقلاب على العقبين معناه الرجوع عن الشيء والعودة من الطريق الذي سلكه اليه فقيل ذلك لكل راجع عن أمر كان فيه من دين أو خير ، وانما قيل رجع على عقبيه لرجوعه دبرا على عقبه الى الوجه الذي كان فيه بدء سيره قبل مرجعه عنه فيجعل ذلك مثلا لكل تارك أمرا وأخذ اخر غيره اذا انصرف عما كان فيه الى الذي كان له تاركا فأخذه فقيل ارتدّ فلان على عقبه وانقلب على عقبيه(٧٥) . ومعنى الانقلاب على العقبين أو على الاعقاب في الآيتين هو الكفر بعد الايمان والارتداد عن الاسلام(٧٦) . وهذه استعارة لان فيها تشبيها للرجوع في الارتياب بالرجوع على الاعقاب(٧٧) .

(قد نرى تقلب وجهك في السماء) (٧٨) :

التقلب من القلب وهو تحويل الشيء عن وجهه فتقلّب الشيء أي

---

(٧١) المجادلة /١٨ .
(٧٢) البقرة /١٤٣ . آل عمران /١٤٤ .
(٧٣) ينظر اللسان مادة عقب .
(٧٤) اللسان مادة قلب .
(٧٥) تفسير الطبري ٢/١٠ .
(٧٦) التفسير لابن قتيبة /١٤٣ . تفسير الطبري ٢/١٠ .
(٧٧) تلخيص البيان /٢١ .
(٧٨) البقرة /١٤٤ .

تحول ظهرا لبطن(٧٩) ٠

وتقلب الوجه معناه انتظار شيء ، وانما قيل ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا لانه كان قبل تحويل قبلته من بيت المقدس الى الكعبة يرفع بصره الى السماء ينتظر من الله جل ثناؤه أمره بالتحويل نحو الكعبة(٨٠) ٠ وعن الزجاج تقلب عينيك في النظر الى السماء(٨١) ٠

والمعنى في هذا كله يجري على الاستعارة لان التقلب كما رأينا هو التحول في الشيء من ظاهره الى باطنه ومن أعلاه الى أسفله وعلى قول الزجاج يكون على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الكلية، لان المقصود العينين دون سائر الوجه ٠

(وتقطعت بهم الاسباب) (٨٢) :

السبب في اللغة هو الحبل القوي الطويل الذي يصعد به أو ينحدر به(٨٣) ولذلك أسند اليه التقطع ، وقد استعير السبب للدلالة على كل شيء يتوصل به الى شيء اخر ولذلك قالوا جعلت فلانا لي سببا الى فلان في حاجتي وودجا أي وصلة وذريعة(٨٤) ٠ ومن ذلك دلالة السبب على القرابة والمصاهرة ومنه الحديث الشريف « كل سبب ونسب ينقطع الا سببي ونسبي(٨٥) ٠ ودلالته على المودة والوصال ٠٠ وبذلك كله فسّر قوله تعالى في الاية فقالوا ان كل شيء من ذلك كان بينهم

---

(٧٩) اللسان مادة قلب ٠
(٨٠) تفسير الطبري ٢/١٣ ٠
(٨١) تفسير القرطبي ٢/١٥٨ ٠
(٨٢) البقرة /١٦٦ ٠
(٨٣) اللسان مادة سبب ٠
(٨٤) المصدر السابق ٠
(٨٥) التاج مادة سبب ٠

يتقطع يوم القيامة فلا مصاهرة ولا قرابة ولا مودّة ولا وصال بل ينقلب بعضهم عدوا لبعض(٨٦) ٠

(ولا تتّبعوا خطوات الشيطان) (٨٧) :

تبعَ الشيء تتبعا وتَباعا في الافعال وتَبعتُ الشيء تبوعا سرت في اثره واتّبعه واتبعه وتتّبعه قفاه(٨٨) والخطوة ما بين القدمين بضم الخاء والخطوة الفعلة الواحدة بفتح الخاء(٨٩) ٠ ومعنى « لا تتبعوا خطوات الشيطان » لا تقتدوا به ولا تستنوا بسنته(٩٠) ٠٠ أي لا تقفوا أثره فيما يحرم عليكم مما لم يحرمه الله، ويحله لكم مما حرمه الله عليكم(٩١) ٠ ولا تسلكوا الطريق التي يدعوكم اليها(٩٢) ، ذلك لان خطوات الشيطان تدل على عمله أو خطاياه أو طاعته ، أو النذور في المعاصي ، وكل ذلك قد قال به العلماء في تفسير الاية(٩٣) وهو خروج بالاتباع والخطوات من معناهما الحقيقيين الى معان مجازية على سبيل الاستعارة ٠ قال الشريف الرضي وهي من أشرف الاستعارات وأبلغ عبارة عن التحذير من طاعة فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو الى فعله(٩٤) ٠

(أم تقولون على الله مالا تعلمون) (٩٥) :

---

(٨٦) ينظر تفسير ابن قتيبة /٦٨ ٠ وينظر تفسير الطبري ٢/٤٣ ٠
(٨٧) البقرة /١٦٨ـ٢٠٨ ٠ الانعام /١٤٢ النور /٢١ ٠
(٨٨) اللسان مادة تبع ٠
(٨٩) تفسير ابن قتيبة /٦٨ ٠
(٩٠) تفسير الكشاف ١/٣٢٧ ٠
(٩١) التأويل /٣٣٩ ٠
(٩٣) ينظر تفسير الطبري ٢/٤٦ ٠
(٩٢) اللسان مادة خطا ٠
(٩٤) تلخيص البيان /١١ ٠
(٩٥) البقرة /٨٠ـ١٦٩ آل عمران /٧٥ـ٧٨ النساء /١٧١ الانعام /٩٣ الاعراف /٢٨ـ٣٣ـ١٦٩ يونس /٦٨ الحاقة /٤٤ ٠

يقال في اللغة : قال على الله شيئا أو تقوّله عليه بمعنى افتراه وابتدعه كذبا وقال عليه ما لم يكن قاله(٩٦) . ويدخل فيه كل ما يضاف الى الله تعالى مما لا يجوز عليه، كالقول هذا حرام وهذا حلال بدون علم(٩٧) . كما قالت اليهود في البحائر والسوائب والوصائل والحوامي(٩٨) .

(ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) (٩٩) :

الالقاء باليد الى التهلكة معناه الاستسلام لها والانقياد ، وعلى ذلك تكون الباء زائدة ، أي لا تقبضوا التهلكة أيديكم أي لا تجعلوها آخذة بأيديكم مالكة لكم، وعندئذ يكون المعنى جاريا على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية ، والمراد باليد النفس ، لان الذي ينقاد ويستسلم يعطي يده لمن يقوده ويسلمه اياها . وقيل ان المعنى لا تلقوا أنفسكم بأيديكم مالكة لكم، وعندئذ يكون المعنى جاريا على سبيل المجاز المرسل لا تكون الباء زائدة . وذلك لان المقصود بقوله تعالى في الاية ان ترك النفقة في القتال كالمستسلم للهلكة بتركه أداء فرض الله عليه في ماله(١٠٠) . والاية تحتمل عند الزمخشري أربعة معان ، الاول : الذي ذكرناه من أن ترك النفقة في القتال اهلاك للنفس . والثاني : الاسراف في النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله، والثالث : والاستقتال والاخطار بالنفس ، والرابع : ترك الغزو الذي هو تقوية للعدو(١٠١) . وأضاف القرطبي معنى اخر مقاربا وهو أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد(١٠٢) .

---

(٩٦) ينظر اللسان مادة قول .
(٩٧) تفسير الكشاف ١/ ٢٥٠ .
(٩٨) تفسير الطبري ٢/٤٦ .
(٩٩) البقرة /١٩٥ .
(١٠٠) ينظر تفسير الطبري ٢/١١٩ .
(١٠١) ينظر الزمخشري ١/٣٤٣ .
(١٠٢) تفسير القرطبي ٢/٣٦١ .

(فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) (١٠٣) :

أصل الافاضة لغة الصب بكثرة كصب الماء ونحوه ومعنى الآية اذا دفعتم من عرفات(١٠٤) . وأصله أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول كما ترك في دفعوا من موضع كذا(١٠٥) . وعند القرطبي ان معنى أفضتم اندفعتم(١٠٦) فلا مفعول به محذوف . وللطبري تفسير اخر اذ ان معنى الافاضة عنده الرجوع ، قال فاذا أفضتم فاذا رجعتم من حيث بدأتم ولذلك قيل للذي يضرب القداح بين الايسار مفيض لجمعه القداح ثم افاضته اياها بين المياسرين، ومنه قول بشر بن أبي خازم الاسدي :

فقلت لها ردي اليه جنانه
فردت كما رد المنيح مفيض(١٠٧)

والصحيح ان هذا كله مأخوذ من افاضة الماء أي صبّه بكثرة فلا يفيض الماء الا اذا تجمع . قال الراغب في تفسير الاية: « أي دفعتم منها بكثرة تشبيها بفيض الماء » (١٠٨) .

(واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم) (١٠٩) :

العزة الرفعة والامتناع والشدة والقوة والغلبة(١١٠) . وقيل في معنى العزة في هذه الاية انها بمعنى الاستكبار والحمية أي انه « استكبر ودخلته عزة وحمية بما حرم الله عليه وتمادى في غيه وضلاله(١١١) .

---

(١٠٣) البقرة /١٩٨-١٩٩ .
(١٠٤) التفسير لابن قتيبة /٧٩ .
(١٠٥) الكشاف ١/٣٤٨ .
(١٠٦) تفسير القرطبي ٢/٤١٤ .
(١٠٧) تفسير الطبري ٢/١٦٦ .
(١٠٨) المفردات فيض .
(١٠٩) البقرة /٢٠٦ .
(١١٠) ينظر اللسان مادة عزز .
(١١١) تفسير الطبري ٢/١٨٦ .

وقيل انها بمعنى المنعة والشدة أي « اعتز في نفسه وانتحى فأوقعته تلك العزة في الاثم حين أخذته وألزمته اياه » (١١٢) . ومعنى أخذته العزة بالاثم من قولك « أخذته بكذا اذا حملته عليه وألزمته اياه » (١١٣) . وقد استعيرت العزة هنا للحمية والانفة المذمومة(١١٤) على أن الاستعارة لا تتحقق الا من المعنى العام وهو قوله تعالى : « أخذته العزة بالاثم » .

(فاولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والاخرة) (١١٥) .

أصل الحبط الذهاب بعد الحصول ، فيقال حَبِطَ الجرح حبطة بالتحريك أي عَرِب ونكِس(١١٦) ، وحَبِط ماء الركيّة اذا ذهب ذهابا لا يعود كما كان(١١٧) . وحبطت الدابة حَبَطا بالتحريك اذا أصابت مرعى طيبا فأفرطت في الاكل حتى تنتفخ فتموت(١١٨) .

وهذه المعاني لا تخرج عما ذكرنا من أن هذه المادة تدل على زوال الشيء بعد حصوله أو وجوده . واسناد الحبط الى الاعمال استعمال مجازي استعاري(١١٩) . وقيل في تفسير قوله تعالى : (حبطت أعمالهم) «أي بطلت» (١٢٠) . وقال الطبري : « يعني بقوله حبطت أعمالهم بطلت وذهبت وبطولها ذهاب ثوابها وبطول الاجر عليها والجزاء

---

(١١٢) تفسير القرطبي ١٩/٣ . وفيه في الاعم تحريف . والصحيح ما أثبتناه .
(١١٣) تفسير الكشاف ٣٥٢/١ .
(١١٤) ينظر التاج مادة عزز .
(١١٥) البقرة /٢١٧ آل عمران /٢٢ المائدة /٥ـ٥٣ الانعام/٨٨ . الاعراف /١٤٧ التوبة /١٧ـ٦٩ هود /١٦ الكهف /١٠٥ الاحزاب /١٩ الزمر /٦٥ محمد /٩ـ٢٨ـ٣٢ الحجرات /٢ .
(١١٦) اللسان مادة حبط .
(١١٧) تاج العروس مادة حبط .
(١١٨) اللسان مادة حبط .
(١١٩) تلخيص البيان /١٧ .
(١٢٠) التفسير لابن قتيبة /٨٢ .

في دار الدنيا والاخرة(١٢١) .

(فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) (١٢٢) :

يقال أتى الامر من مأتاه ومأتاته أي من جهته ووجهه الذي يؤتى منه(١٢٣) . وقول القائل ائت الامر من مأتاه انما معناه اطلبه من مطلبه(١٢٤) ، وأتى الفاحشة تلبّس بها(١٢٥) . قال الزمخشري (فأتوا حرثكم) والمعنى جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتي واحدا وهو موضع الحرث(١٢٦) .

وواضح انه قد كُني بالاتيان عن الوطء(١٢٧) ، وهي من أجمل الكنايات كما يقول الزبيدي ، وعلى هذا يخرج الفعل (أتى) مجازا الى معنيين الاول : بمعنى القصد وطلب الشيء في موضعه المقرر ، وعليه قوله تعالى في الاية المذكورة والثاني: بمعنى التلبّس وفعل الشيء وبه فسّر قوله تعالى : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (١٢٨) .

(قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا) (١٢٩) :

الافراغ لغة هو الصب ، يقال فرغ عليه الماء وأفرغه صبّه(١٣٠).

---

(١٢١) تفسير الطبري ٢/٢٠٧ .
(١٢٢) البقرة /٢٢٢-٢٢٣ الاعراف /٨١ النمل /٥٥ العنكبوت /٢٩ .
(١٢٣) اللسان مادة أتى .
(١٢٤) تفسير الطبري ٢/٢٣٠ .
(١٢٥) التاج مادة أتى .
(١٢٦) الكشاف ١/٣٦٢ .
(١٢٧) التاج مادة أتى، وتفسير القرطبي ٣/٩٠ .
(١٢٨) سورة الاعراف /٨٠، التاج مادة أتى وينظر الكشاف ١/٥٥٨ ط. شركة البابي الحلبي .
(١٢٩) البقرة /٢٥٠ . الاعراف/ ١٢٦ .
(١٣٠) اللسان مادة فرغ .

ومعنى قوله تعالى (أفرغ علينا صبرا) أي صبه علينا كما تفرغ الدلو(١٣١) . وقيل أنزل علينا(١٣٢) صبرا يشتمل علينا(١٣٣) . والمعنيان متقاربان وهما استعارة كانهم قالوا أمطرنا صبرا وأسقنا صبرا(١٣٤) . وفي قوله (أفرغ) زيادة فائدة على قوله أنزل كما يقول الشريف الرضي(١٣٥) لان الافراغ يفيد سعة الشيء وكثرته وانضباطه وسرعته(١٣٦) .

(وثبّت أقدامنا) (١٣٦) :

الثبات في اللغة ضد الحركة، وقد فسر قوله تعالى (وثبت أقدامنا) بأن معناه قوّ قلوبنا على جهادهم لتثبت أقدامنا فلا ننهزم عنهم(١٣٧) وخصّت الاقدام دون سائر الجوارح لان الاعتماد عليها في المشي والجري اتبالا أو ادبارا وفي الحركة والسكون . وقد استعمل ثبوت الاقدام أو تثبيتها في القرآن الكريم اما في معرض الثبات وعدم التقهقر في القتال كما في الاية المذكورة . واما للدلالة على الرسوخ في الدين وعدم الزلل عنه كما في قوله تعالى: (ولا تتخذوا ايمانكم دَخَلا بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها) (١٣٨) .

وقد عد الشريف الرضي ثبوت القدم أو زللها في الاية السابقة من باب الاستعارة لان المراد بالقدم ههنا الثبات في الدين ولما كان

---

(١٣١) تفسير ابن قتيبة ٩٣ و ١٧٠ .
(١٣٢) تفسير الطبري ٢/٣٩٦ .
(١٣٤) تلخيص البيان /١٤ .
(١٣٣) التاج مادة فرغ .
(١٣٥) تلخيص البيان /١٤ .
(١٣٦) البقرة /٢٥٠ آل عمران /١٤٧ الانفال /١١ النحل/ ٩٤ محمد /٧ .
(١٣٧) تفسير الطبري ٢/٣٩٦ .
(١٣٨) النحل /٩٤ .

اصل الثبات في الشيء والاستقرار انما يكون بالقدم حسُن أن يعبّر عن هذا المعنى بلفظ القدم وكان المراد بقوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) أي يضعف دينكم ويضطرب يقينكم فيكون كالقدم الزالة والقائمة المائلة(١٣٩). وعندي انها في الآيات الاخرى من باب الكناية لان المطلوب في القتال ثبات الاقدام حقيقة ومجازا .

(فقد استمسك بالعروة الوثقى) (١٤٠) :

للعروة في اللغة ثلاثة اصول، الاول: هو المقبض في الكوز والدلو ونحوهما(١٤١) والثاني : الحبل الوثيق(١٤٢) والثالث : ما له أصل باق في الارض من الشجر كالنصي والعرفج وأجناس الخلة والحمض(١٤٣) . وقد وُجه معنى الاية على هذه الاصول الثلاثة، قال الطبري : « والعروة في هذا المكان مثل للايمان الذي اعتصم به المؤمن نشبهه في تحلقه به وتمسكه به بالمتمسك بعروة الشيء الذي له عروة يتمسك بها اذ كان كل ذي عروة فانما يتعلق من أراده بعروته » (١٤٤) . وقال الزمخشري: « فقد استمسك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق المحكم المأمون انفصامها » (١٤٥) . وقال الزبيدي : اذا أمحل الناس عصمت العروة الماشية ، ضربها الله مثلا لما يعتصم به من الدين في قوله فقد استمسك بالعروة الوثقى(١٤٦) .

وقيل ان المقصود بالعروة الوثقى هو قول لا اله الا الله .. وقيل معناه فقد عقد لنفسه من الدين عقدا وثيقا لا تحله حجة .

---

(١٣٩) تلخيص البيان /١١١ .
(١٤٠) البقرة /٢٥٦ . لقمان /٢٢ .
(١٤١) اللسان مادة عرا .
(١٤٢) تفسير الكشاف ٣٨٧/١ .
(١٤٣) التاج مادة عرا .
(١٤٤) تفسير الطبري ١٤/٣ .
(١٤٥) تفسير الكشاف ٣٨٧/١
(١٤٦) التاج مادة عرا .

وأيّا كان معنى العروة في الاصل أو المعنى فان استعمالها هنا هو هذا الاستعمال البليغ يجري مجرى الاستعارة لان الذي يتمسك بقول لا اله الا الله أو بالعقد الذي عقده على نفسه كمن يتمسك بالعروة التي لا تنفصم أو لا تبلى أو لا ينقطع أصلها فهو يتشبث به كما يتشبث بالمقبض أو يتمسك بالحبل أو يستعصم به كما تستعصم الماشية بالعروة من الشجر اذا أمحل الناس ، وهذا تمثيل للمعلوم والنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر اليه بعينه فيحكم اعتقاده والتقيد به(١٤٧) ٠

﴿ ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ﴾ (١٤٨) :

ذهب المفسرون في توجيه الاغماض في هذه الآية(١٤٩) الى انه اما من اغماض العين وهو اطباق جفونها، واما من الاغماض بمعنى اتيان الغامض من الامر ٠ فأما الذين ذهبوا الى انه من اغماض العين قالوا ان المعنى أنكم لا تقبلوا الخبيث الا أن تترخصوا فيه(١٥٠) ، أي تتجافوا في أخذكم اياه عن بعض الواجب لكم من حقكم فترخصوا فيه لانفسكم ، يقال منه أغمض فلان لفلان عن بعض حقه فهو يغمض ومن ذلك قول الطرماح بن حكيم :

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ
ـم رجال يرضون بالاغماض(١٥١)

لان الذي يريد الصبر على مكروه يغمض عينيه ، قال :

---

(١٤٧) تفسير الكشاف ١/٣٨٧ ٠
(١٤٨) البقرة /٢٦٧ ٠
(١٤٩) قال الزبيدي في تاج العروس مادة غمض أن رجلا جاء بصدقة من حشف التمر فألقاه في خلال الصدقة فنزلت الآية ٠
(١٥٠) التفسير لابن قتيبة ٩٨ ٠ والتأويل له ١٤١ ٠
(١٥١) تفسير الطبري ٣/٥٦ ٠ وانظر الزمخشري ١/٣٩٦ ٠

الى كم وكم أشياء عنك تريبني
أغمّض عنها لست عنها بذى عمى

وهذا كالاغضاء عند المكروه(١٥٢) ٠

وأما الذين ذهبوا الى ان الاغماض بمعنى اتيان الغامض من الامر ، فقالوا ان العرب تقول أغمض الرجل اذا أتى غامضا من الامر ، كما تقول اعمن الرجل اذا أتى عمان وأعرق أي أتى العراق وأنجد واغور اي اتى نجدا والغور الذي هو تهامة والمعنى انه يطلب التأويل على أخذه(١٥٣) ٠

وسواء كان الاغماض من اغماض العين أو اتيان الغامض من الامر فانه يجري في هذه الاية على الاستعارة لان المشتري يتغاضى عما في السلعة من عيوب مقابل أن يتساهل البائع في ثمنها ٠ وقد تطور المعنى في الاغماض الى الدلالة على التساهل والمسامحة(١٥٤) ٠

(لا يستطيعون ضربا في الارض) (١٥٥) :

معنى الضرب في الارض السير فيها طلبا للرزق والمكاسب والتجارة(١٥٦) ٠ وقال ابن قتيبة انه التباعد(١٥٧) ٠

ولعل هذا المعنى متأت من ان المسافر ماشيا أو راكبا يضرب الارض بأقدامه أو اقدام راحلته ٠٠ فعل هذا يكون هذا المصطلح جاريا على

---

(١٥٢) تفسير القرطبى ٣/٣٢٧ ٠
(١٥٣) المصدر السابق ٠
(١٥٤) لسان العرب مادة غمض ٠
(١٥٥) البقرة /٢٧٣ آل عمران /١٥٦ النساء /١٠١ المائدة /١٠٦ المزمل/ ٢٠ ٠
(١٥٦) التأويل لابن قتيبة ٣٧٨، وتفسير الطبري ٣/٦٥ ٠
(١٥٧) تفسير ابن قتيبة ١١٤ ٠

الكناية . ومن المعلوم ان الضرب يقع على جميع الاعمال الا قليلا(١٥٨) ، كضرب الخمر على الجيوب أي تغطيتها وضرب النقود أي سكها وضرب الخيام أي اقامتهـــا .

(ولم يمسسني بشـر) (١٥٩) :

المس هو اللمس وهو مسـك الشيء بيدك(١٦٠) . وواضح أن المس في هذه الاية والآيات الاخرى كناية عن غشيان الرجل للمرأة بدليل ما جاء على لسان مريم في قوله تعالى: (ولم يمسسني بشر) في انكارها أن يكون لها ولد أي لم تُمس بزواج أو نكـاح(١٦١) .

(ربنا ولا تحمل علينا اصراً) (١٦٢) :

الاصر هو الثقل(١٦٣)، وهو الثقل والشد(١٦٤) أو العب(١٦٥) . ومعنى الثقل والعبء واضح في الايـة في قوله تعـالى : (ولا تحمل علينا اصرا بدليل (ولا تحمل علينا) . وقد انتقل معنى الامر الى امور منها العهد، كما في قوله تعالى: (وأخذتم على ذلكم اصري) أي عهدي لان العهد ثقل ومنع من الامر الذي اخذ له(١٦٦) ، ومنها اليمين وهو ان تحلف بطلاق أو عتاق أو نذر .. لانها أثقل الايمان وأضيقها مخرجا يعني انه

---

(١٥٨) اللسـان مادة ضرب .
(١٥٩) البقرة /٢٣٦- ٢٣٧ آل عمران /٤٧ مريم /٢٠ الاحزاب/٤٩ المجادلـة ٣-٤ .

(١٦٠) اللسـان مادة مس .
(١٦١) اللسان مادة مس ، تفسير القرطبي ٤/٩٢ .
(١٦٢) البقرة /٢٨٦ آل عمران /٨١ الاعراف /١٥٧ .
(١٦٣) اللسان والتاج مادة اصر، التأويل لابن قتيبة /١٤٨ ، التفسير له ١٠٠-١٧٣ .
(١٦٤) التـاج مـادة اصر .
(١٦٥) تفسـير الكشـاف ١/٤٠٨ .
(١٦٦) التأويل /١٤٨ التفسـير ١٠٠ .

يجب الوفاء بها ولا يتعوض عنها بالكفارة(١٦٧) . ومنها الامر الثقيل عموما(١٦٨) . ومنها ما يراه القراء من انه اثم العقد والعهد اذا ضيعوه أو عقوبة ذنب شاقة عن أبي منصور(١٦٩) .

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : (ولا تحمل علينا اصراً) أي لا تحملنا من التكاليف ما لا طاقة لنا على حمله . فالمعنى هاهنا على سبيل الاستعارة ، لان هذه التكاليف أثقال يشق على الانسان حملها . وفي هذا اشارة الى ما وضعه الاسلام عن المسلمين من الاوزار التي كان يتحملها بنو اسرائيل من نحو قتل الانفس، وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب(١٧٠) ، وتحريم التصرف في السبوت والاكل من اللحم المتصل بالعروق وما يجري هذا المجرى(١٧١) . وهذا واضح في الاية الثالثة وهو قوله تعالى: (ونزع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم) .

(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) (١٧٢) :

أصل القرض في اللغة القطع ، ثم أطلق على ما يتجازى به الناس ويتقاضونه(١٧٣) . وهذه استعارة، وهو في القرآن بمعنى العمل الحسن الذي يستحق الثواب والاجر العظيم، كالقتال في سبيل الله كما في آية البقرة أو الانفاق في سبيله كما في آية المائدة(١٧٤) . قال القرطبي : « واستدعاء القرض في هذه الآية انما هو تأسيس وتقريب للناس بما

---

(١٦٧) التاج مادة اصر .
(١٦٨) اللسان مادة اصر .
(١٦٩) اللسان مادة اصر .
(١٧٠) تفسير الكشاف ٤٠٨/١ .
(١٧١) تلخيص البيان /٥١ .
(١٧٢) البقرة /٢٤٥ المائدة /١٢ الحديد /١١ـ١٨ المزمل /٢٠ التغابن /١٧ .
(١٧٣) اللسان مادة قرض .
(١٧٤) ينظر تفسير الطبري ٩٨/٦ .

يفهمونه والله هو الغني الحميد ، لكنه تعالى شبّه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض ، كما شبّه عطاء النفوس والاموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء » (١٧٥) .

ولذلك صرح الشريف الرضي بأنه استعارة، لان « الغني لنفسه لا يجوز عليه الاستقراض على حقيقته ، ولكن المقرض في المشاهد لما كان اسما لمن أعطى غيره مالا على أن يرد عليه عوضه أقام توفير العوض مقام رد المعوّض(١٧٦) .

(ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير) (١٧٧) :

أصل الكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه، ولذلك سمى لابس السلاح كافرا لانه غطاه السلاح ، وسمى الزراع كافرا لستره البذر بالتراب ، والكافر أيضا الليل المظلم لانه يستر بظلمته كل شيء ، والبحر لستره مافيه . وكل من ستر شيئا فقد كفره وكفّره(١٧٨) . وتكفير السيئات سترها حتى تصير كأن لم تكن أو اذهابها وازالتها ، فهو من باب التمريض لازالة المرض والتقذية لذهاب القذى(١٧٩) . قال الراغب: « والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر في الدين أكثر » (١٨٠) .

قال الطبري: ان المعنى « لأغطين بعفوي عنكم وصفحي عن عقوبتكم

---

(١٧٥) تفسير القرطبي ٣/٢٤٠ .
(١٧٦) تلخيص البيان ١٣ .
(١٧٧) البقرة /٢٧١ آل عمران /١٩٣ ـ ١٩٥ النساء /٣١ المائدة /١٢ الانفال /٢٩ العنكبوت /٧ الزمر /٣٥ محمد /٢ الفتح /٥ التغابن /٩ الطلاق /٥ التحريم /٨ .
(١٧٨) ينظر اللسان مادة كفر .
(١٧٩) التاج مادة كفر .
(١٨٠) المفردات كفر .

على سالف أجرامكم » (١٨١) . وعند الزمخشري أن « التكفير اماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة » (١٨٢) .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا) (١٨٣) :

الزيغ الميل ، يقال زاغ عن الطريق يزيغ اذا عدل عنه(١٨٤) . ومنه قوله: (أم زاغت عنهم الابصار) أي عدلت ومالت(١٨٥) ، وهو الحَوْر والاعوجاج والانحراف أيضا .

وزيغ القلوب استعارة لان المقصود ميلها عن الحق وعدولها عن الصواب وانحرافها عنهما وهذا كله فساد وميل عن الدين(١٨٦) .

(ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) (١٨٧) :

هذه الآية معناها انه قد برىء من الله وبرىء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر(١٨٨) . قال الزمخشري(١٨٩) ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية يعني انه منسلخ من ولاية الله رأسا ، وهذا أمر معقول فان موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان .

وأضاف القرطبي(١٩٠) انه ليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء .. وعند القرطبي ان هذا مثل قوله تعالى : (واسأل

---

(١٨١) تفسير الطبري ٩٨/٦ .
(١٨٢) الكشاف ٥٢٢/١ .
(١٨٣) آل عمران /٧-٨ التوبة /١١٧ الصف /٥ .
(١٨٤) اللسان مادة زيغ .
(١٨٥) التفسير ١٠١ .
(١٨٦) ينظر المصدر السابق وتفسير الطبري ١١٧/٣ وتفسير القرطبي ١٩/٤ .
(١٨٧) آل عمران /٢٨ الانعام /١٥٩ .
(١٨٨) تفسير الطبري ١٥٢/٣ .
(١٩٠) تفسير القرطبي ٥٧/٤ .
(١٨٩) تفسير الكشاف ٤٢٢/١ .

القرية) ومثل حكاية سيبويه هو مني فرسخين(١٩١) أي من أصحابي ومعي(١٩٢) . ومعنى ذلك انه يجري مجرى المجاز المرسل ، لان المعنى في قوله تعالى : (واسأل القرية) (١٩٣) أي اسأل أهل القرية . وأما حكاية سيبويه، هو مني فرسخين أي من أصحابي ومعي فلا أجد قرابة بين المعنى واللفظ . ولعله من المصطلحات التي بعد بها الزمن فلا نستطيع معرفة العلاقة بين ألفاظها ومعانيها ولم تصل الينا اصولها وتطورها في الاستعمال .. وهذا مثل قولهم (بعين ما أرينك) أي أسرع(١٩٤) ، اللهم الا اذا كان معنى قولهم هو مني فرسخين انه في حوزتي وأرضي .

(اذ يلقون أقلامهم) (١٩٥) :

أغلب المفسرين على ان المعنى في هذه الآية انهم اقترعوا على كفالة مريم وحضانتها بالازلام على نحو ما كانت تفعل العرب في القداح(١٩٦) . وعلى هذا يكون معنى الاقلام هنا الازلام واحدها زلم وهو السهم الذي يضرب في القداح، وانما سمي السهم قلما لانه يقلم أي يبرى(١٩٧) .

---

(١٩١) نص سيبويه في هذا المثل على رفع (فرسخين) . قال في باب ما شبه من الاماكن المختصة « وأما ما يرتفع من هذا الباب فقولك : هو مني فرسخان، وهو مني عدوة الفرس، ودعوة الرجل وغلوة السهم وهو مني يومان وهو مني فوت اليد فانما فارق هذا الباب الاول لان معنى هذا انه يخبر انه بينه وبينه فرسخين ويومين ودعوة الرجل وفوته » . ثم قال: « وتقول أنت [illegible] ما دمنا نسير فرسخين فنكون ظرفا كما كان ما قبله مما شبه بالمكان » . كتاب سيبويه ١/٤١٥-٤١٧ .

(١٩٢) تفسير القرطبي ٤/٥٧ .

(١٩٤) الميداني مجمع الامثال .

(١٩٥) آل عمران /٤٤ .

(١٩٦) ينظر التفسير لابن قتيبة /١٠٥ تفسير الطبري ٣/١٨٤ تفسير الزمخشري ١/٣٢٣ .

(١٩٧) اللسان مادة قلم .

وقال الزمخشري انهم اقترعوا بالاقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركا بها(١٩٨) . وعندي أن القاء الاقلام هنا يحتمل أن يكون كناية عن الخصومة بدليل قوله تعالى في الآية نفسها (وما كنت لديهم اذ يختصمون) .. ذلك لان المتخاصمين اذا اشتد بينهم الخصام القوا ما بأيديهم وانشغلوا بالخصومة عن الكتابة .

(ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما) (١٩٩) . القيام ضد القعود، وهو في هذه الآية خرج عن أصله فقيل معناه المواظبة بالاقتضاء برفع الامر الى الحاكم واقامة الدليل عليه(٢٠٠) . وقيل معناه القيام على رأسه متوكلا عليه بالمطالبة والتعنيف(٢٠١) مواجهة فيستحي فيؤدي ما عليه لان الحياء في العينين(٢٠٢) . وقد اختار الطبري المعنى الاول أي ما دمت عليه قائما بالمطالبة والاقتضاء من قولهم قام فلان بحقي عند فلان حتى استخرجه أي عمل في تخليصه وسعى في استخراجه منه حتى استخرجه(٢٠٣) .

وذهب الراغب الى أن القيام هنا بمعنى الثبوت « أي ثابتا على طلبه » (٢٠٤) . وعلى هذا يجري الكلام في هذه الآية مجرى الكناية، لان الاقتضاء والمواظبة على المطالبة ومتابعة ذلك وعدم الغفلة عن المدين والسهو عنه وتركه يماطل كل ذلك يحتمل القيام عليه .

(وأخذتم على ذلكم اصري) (٢٠٥) :

الاخذ خلاف العطاء وهو أيضا التناول(٢٠٦) . والاصر الشد

---

(١٩٨) تفسير الكشاف ٣٢٣/١ .
(٢٠٠) تفسير ابن قتيبة /١٠٦ تفسير الكشاف ٤٣٨/١ .
(٢٠١) تفسير الكشاف ٤٣٨/١ .
(٢٠٢) تفسير القرطبي ١١٧/٤ .
(٢٠٣) تفسير الطبري ٢٢٦/٣ .
(٢٠٤) المفردات قوم .
٢٠٥) آل عمران /٨١ .
(٢٠٦) اللسان مادة أخذ .

والعقد ومنه الاصار الذي يعقد بـه(٢٠٧) ٠

وأصل الاخذ أن يكـون باليـد ثم يستعار في مواضع ومن معانيـه المستعارة القبول(٢٠٨) ٠ وأضاف الطبري الرضا الى القبول وقـال هو مـن قولهم أخذ الوالي عليـه البيعـة بمعنى بايعـه وقبل ولايتـه ورضي بهـا(٢٠٩) :

(ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) (٢١٠) :

السـبيل الطريق ، واستطاعة السبيل الى شيء هـي القدرة عـلى الوصول اليـه ٠ قال الطبري في معرض الحديث عـن آيـة الحـج : « وأولى الاقوال في ذلك عندنا بالصواب قول مـن قال بقول ابن الزبير وعطاء ان ذلك عـلى قدر الطاقة ، لان السبيل في كلام العرب الطريق فمن كان واجدا طريقا الى الحج لا مانع له منه من زمانة أو عجز أو عدو أو قلـة ماء في طريقـه أو زاد وضعف عـن المشي فعليـه فرض الحـج لا يجزيه الا أداؤه(٢١١) ٠

ويتحصل من هـذا ان استطاعة السبيل هي القدرة والطاقة عـلى الوصول الى الشيء سواء أكان ذلك في سلامة الطريق نفسها أم في القدرة البدنية للمسافر، أم ما يحيط بالانسان من ظروف ، كل ذلك يدخل في طاقتـه واستطاعته ، وعند الراغب أن الاستطاعة أخص مـن القدرة ، وعنده أن الاستطاعة: « اسم للمعاني التي بها يتمكن الانسان مما يريده من أحداث الفعل، وهي أربعة أشياء : بنية مخصوصة للفاعل ، وتصور للفعل ومادة قابلة لتأثيره وآلة ، وان كان الفعل آليا كالكتابة » ٠ ثـم قال بعد أن ذكر الآيـة: « فانه يحتاج الى هـذه الاربعة(٢١٢) ٠ وقـد

---

(٢٠٧) الكشـاف ١/٤٤١ ٠
(٢٠٨) التأويـل /٥٠٢ ٠
(٢٠٩) تفسـير الطبري ٣/٢٣٨ ٠
(٢١٠) آل عمران /٩٧ الاسراء /٤٨ الفرقـان /٩ ٠
(٢١١) تفسـير الطبري ٤/١٣ ٠
(٢١٢) المفـردات طـوع ٠

استعيرت السبيل لذلك كلـه ·

(تبغونهـا عوجـاً) (٢١٣) :

العِوَج في الارض أن لا تستوي(٢١٤) · قال الطبري: « العِوَج بكسر أولـه الأود في الدين والكلام، والعَوَج بفتح أولـه الميل في الحائط والقناة وكل شيء منتصب قائم(٢١٥) · وعند الراغب العِوج: « العطف عن حال الانتصاب ·· والعَوَج يقال فيما يدرك بالبصر سهلا كالخشب المنتصب ونحوه ، والعِوج يقـال فيما يدرك بالفكر والبصيرة(٢١٦) · وعـن ابن الاثير ان العَوَج بفتح العـين مختص بكـل شخص مرئـي كالاجسام، وبالكسر بما ليس بمرئي كالرأي والقول(٢٧٠) · وعنه أيضا أن الكسر يقال فيهما معا · وهذا ما أثبته صاحب التاج فيعوج الطريق وعوجه زيغه وميلـه(٢١٨) ·

فمذهب المفسرين وأصحاب غريب الحديث ان العوج بفتـح الاول هو للاشياء الشاخصة المحسوسة كالطريق والاجسام والحائط والقنـاة وكل ما هو قائم منتصب، وبالكسر للمدركات كالرأي والقول والدين · أما اللغويون فان العَوَج والعِوَج عندهم مـن أصل واحـد لان كليهما يطلق على الطريق وغيرها من المرئيات(٢١٩) · وانتقال معنى العوج من المرئي المحسوس كالطريق والقنـاة والحائط الى المعنوي المدرك كالرأي والقول والدين هو من باب الاستعارة أو المثل كما في التاج · والمثل عند

---

(٢١٣) آل عمران /٩٩ الاعراف /٤٥ـ٨٦ هود /١٩ ابراهيم /٣ ·
(٢١٤) اللسـان مادة عـوج ·
(٢١٥) تفسـير الطبري ٤/١٦ ·
(٢١٦) المفـردات عـوج ·
(٢١٧) اللسـان مادة عـوج ·
(٢١٨) الزبيدي مادة عـوج ·
(٢١٩) ينظر اللسان والتاج مادة عوج ·

القدماء يدخل فيه الاستعارة ، لان سبيل الله سبحانه دينه ومعنى يبغونها عوجا أي يبغون عنها المعادل ويطلبون منها الفسح والمخارج ويوهمون بالشبهات انها معوجة غير قويمة ومضطربة غير مستقيمة(٢٢٠) . فالهاء اذاً في (تبغونها) للسبيل الواردة في أول الآية : (يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله) فخرج الكلام على السبيل والمعنى عند الطبري لاهله كأن المعنى تبغون لاهل دين الله ولمن هو على سبيل الحق عوجا يقول ضلالا عن الحق وزيغا عن الاستقامة على الهدى والمحجة(٢٢١) .

وقال الزمخشري تطلبون لها اعوجاجا وميلا عن القصد والاستقامة فان قلت كيف تبغونها عوجا وهو محال ، قلت فيه معنيان أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم ان فيها عوجا بقولكم ان شريعة موسى لا تنسخ وبتغييركم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك ، والثاني أنكم تتعبون أنفسكم في اخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجوه العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم(٢٢٢) . وقال القرطبي: « حذف اللام من تبغونها أي تبغون لها مثلما حذفت في قوله تعالى: (واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (٢٢٣) . يقال بغيت له كذا أي طلبته وأبغيته كذا أي أعنته » (٢٢٤) . وليس الامر كما قال الزمخشري وتابعه القرطبي من أن يبغونها بمعنى يبغون لها فحذفت اللام لان معنى تبغونها على ما يفهم من كلام المفسرين هو تريدونها وليس تطلبون لها كما ذهب اليه . وفرق كبير بين تبغونها عوجا أي تريدونها

---

(٢٢٠) تلخيص البيان : ٤٥ .
(٢٢١) تفسير الطبري ٤/١٦ .
(٢٢٢) تفسير الكشاف ١/٤٤٩ .
(٢٢٣) سورة المطففين /٣ .
(٢٢٤) تفسير القرطبي ٤/١٥٤ .

معوجّة وبين تطلبون لها ذلك ، بدليل قوله تعالى في أول الآية لما تصدون عن سبيل الله ، والله أعلم .

(ومن يعتصم بالله) (٢٢٥) :

العصام هو الحبل والوكاء الذي تربط به القربة(٢٢٦) ، وكذلك العصمة قال الزجاج : وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه(٢٢٧) .. والاعتصام هو الامساك بالعصام أو ما يشبهه كي يمنعه من السقوط .

وقوله تعالى: « ومن يعتصم بالله » معناه من يمتنع بالله(٢٢٨) أو من يتعلق بأسباب الله ويتمسك بدينه وطاعته(٢٢٩) .

وقد خرج معنى العصمة التي هي الحبل الذي يتمسك به والعصام الذي يربط به الى معنى المنع عموما ، ومنه قوله تعالى: « سآوي الى جبل يعصمني من الماء » (٢٣٠) أي يمنعني من تغريق الماء وقوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله، أي لا مانع . ومنه قولهم عصمه الطعام أي منعه من الجوع، وكل مانع شيء فهو عاصمه والممتنع به معتصم به(٢٣٢).

فقد خرج معنى العصمة والعصام الى معنى جديد وهو المنع على سبيل الاستعارة ثم تصرف المصطلح تصرفا تاما ، فكانت صورته الاولى (ومن يعتصم بالله) أو (واعتصموا بحبل الله) بذكر الحبل أو بحذفه لان الاعتصام يوحي بالحبل ذكر او حذف ثم استعمل الفعل يعصم

---

(٢٢٥) آل عمران /١٠١ ـ١٠٣ النساء /١٤٦ـ١٧٥ المائدة /٦٧ يونس /٢٧ هود /٤٣ يوسف /٣٢ الحج /٧٨ الاحزاب /١٧ غافر /٤٠ .

(٢٢٦) تاج العروس مادة عصم .

(٢٢٧) اللسان مادة عصم .

(٢٢٨) التفسير لابن قتيبة ١٠٨ .

(٢٢٩) تفسير الطبري ١٨/٤ .

(٢٣٠) سورة هود آية ٤٣ .

(٢٣١) التفسير ١٠٨ .

(٢٣٢) تفسير الطبري ١٨/٤ .

واستعصم . وقد نظر الشريف الرضي الى الحبل فعدّه موضع الاستعارة قال وهذه استعارة ومعناها تمسكوا بأمر الله لكم وعهده اليكم والحبال العهود في كلام العرب وانما سميت بذلك لأن المتعلق بها ينجو مما يخافه كالمتشبث بالحبل اذا وقع في غمرة وارتكس في هوة فالعهود يستأمن بها من المخاوف والحبال يستنقذ بها من المتالف فلذلك وقع التشابه بينهما(٢٣٣)

(فألف بين قلوبكم) (٢٣٤)

مادة (ألف) لها ثلاثة اصول لغوية : الاول يأتي بمعنى اللزوم فيقال ألِف الشيء ألفا والانا والفازل وآلفه الزمه . والثاني يأتي بمعنى الجمع والوصل فيقال ألّفت الشيء اذا وصلت بعضه ببعض ومنه تأليف الكتب . والثالث: الاستئناس فيقال ألِفت فلانا اذا أنست به ومنه الحيوانات والطيور الاليفة(٢٣٥) .

وواضح ان قوله تعالى: « فألف بين قلوبكم » أي جمع بينها في المودة والمحبة ومثله قوله تعالى: « لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم » بعد أن كانوا أعداء وفي ذلك اشارة لما كان بين الاوس والخزرج من العداوة والبغضاء(٢٣٦) . وأما قوله تعالى: « والمؤلفة قلوبهم » (٢٣٧) في آية الصدقة فمن الاستئناس وهم نفر كان النبي صلى الله عليه وسلم يتألفهم على الاسلام(٢٣٨) رغبة في ايمان أتباعهم لكي لا يحاربوا دون ذلك وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يجزل لهم

---

(٢٣٣) تلخيص البيان /٢٠ .
(٢٣٤) آل عمران /١٠٣ الانفال /٦٣ التوبة /٦٠
(٢٣٥) اللسان مادة ألف .
(٢٣٦) ينظر تفسير الطبري ٢٢/٤ تفسير القرطبي ٤٣/٨ .
(٢٣٧) التوبة /٦٠ .
(٢٣٨) التفسير لابن قتيبة ١٨٩ .

العطاء من الغنائم كما فعل يوم حنين(٢٣٩) ، ومنه الحديث الشريف : «اني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم » (٢٤٠) أي أداريهم وأونسهم ليثبتوا على الاسلام رغبة فيما يصل اليهم من المال(٢٤١) .

فتأليف القلوب استعير للدلالة على الجمع والوصل بينها وزرع المودة فيها كما استعير للدلالة على ايناسها كما تستأنس الدواجن والطيور .

(وكنتم على شفا حفرة من النار) (٢٤٢)

معنى الآية التي خوطب بها المؤمنون من الأوس والخزرج انكم كنتم قبل ايمانكم توشكون على الوقوع في النار وكنتم مشرفين على ذلك ، ليس بينكم وبين الوقوع فيها الا أن تموتوا على ذلك من كفركم فتكونوا من الخالدين فيها فأنقذكم الله منها بالايمان الذي هداكم له » (٢٤٣) .

والشفا حرف كل شيء وحده والاثنان شفوان والجمع أشفاء(٢٤٤) ، ومتحصل من هذا ان معنى الوشوك في الوقوع في الشيء والاشراف عليه متحصل في الجار والمجرور (على شفا) ويضرب هذا مثلا في القرب من الهلكة(٢٤٥) ، وهو على سبيل الاستعارة لانه « شبه المشفي لسوء عمله على دخول النار بالمشفى لزلة قدمه على الوقوع في النار » (٢٤٦) .

وقد أخذ من هذا قولهم أشفى على كذا أي أشرف عليه(٢٤٧) .

---

(٢٣٩) ينظر اللسان مادة ألف .
(٢٤٠) التاج مادة ألف .
(٢٤٢) آل عمران /١٠٣ التوبة /١٠٩
(٢٤٣) تفسير الطبري ٤/٢٥ .
(٢٤٤) اللسان مادة شفا .
(٢٤٥) التاج مادة شفا .
(٢٤٦) تلخيص البيان /٢٠ .
(٢٤٧) تفسير ابن قتيبة ١٠٨ .

(يوم تبيّض وجوه) (٢٤٨) :

يذهب المفسرون الى ان بياض الوجوه وسوادها يوم القيامة حقيقي ، فأهل الآخرة فريقان أحدهما بيضاء وجوهه والاخر سوداء وجوهه(٢٤٩) . ويضيف الزمخشري الى بياض الوجه يوم القيامة الى الفريق الاول أن يسعى النور بين يديه وبيمينه ويسفر وجهه ويشرف وتبيضّ صحيفته ، فالبياض عنده من النور ، كما ان السواد من الظلمة(٢٥٠) . وظل هذا المعنى وهو البياض الحقيقي هو المعروف من قولهم أبيض الوجه أو بيضاء الوجه وهو نقاء الوجه من الكلف والسواد الشائق(٢٥١) . ومنه قولهم « بيّض الله وجهه » .. غير ان العرب أخرجت البياض الى معنى مجازي ، فالبياض عندهم يأتي بمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب ، فيقال فلان أبيض وفلانة بيضاء ، وهو كثير في أشعار العرب لا يقصدون به بياض اللون ، بل يريدون المدح بالكرم ونقاء العرض(٢٥٢) . والى المعنى المجازي ذهب الراغب في تفسيره للآية ، فعنده ان ابيضاض الوجوه عبارة عن المسرّة واسوادها عن الغم(٢٥٣) .

واليوم يستعمل بياض الوجه في معان مختلفة يجمعها الفوز والنقاء من الدنس وكل ما يشين ، كما ان سواد الوجه يدل على الخيبة والخذلان والاحساس بالذنب والخزي .

---

(٢٤٨) آل عمران /١٠٦ ـ ١٠٧ .
(٢٤٩) تفسير الطبري ٤/٢٧ . وينظر تفسير القرطبي ٤/١٦٦ .
(٢٥٠) تفسير الكشاف ١/٤٥٣ .
(٢٥١) اللسان مادة بيض .
(٢٥٢) المصدر السابق، الموضع نفسه .
(٢٥٣) المفردات بيض .

﴿ وتسوّد وجوه ﴾ (٢٥٤) :

القول في معنى هذه الآية كالقول في معنى قوله تعالى: « تبيّض وجوه » فسواد الوجه في الآخرة كبياضه الحقيقي، وأهلها فريقان فريق بيضاء وجوههم والاخر سوداء وجوههم . ويقول القرطبي: « ويقال اذا كان يوم القيامة يؤمر كل فريق بأن يجتمع الى معبوده فاذا انتهوا اليه حزنوا واسودت وجوههم » (*) . وعند الزمخشري ان السواد من الظلمة ، كما ان البياض من النور فمن « كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده واسودت صحيفته واظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب » (**) .

هذا في اسوداد وجوه فريق يوم القيامة الذي تتحدث عنه هذه الآية . أما قوله تعالى: « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » (٢٥٥) . فقد ذكر القرطبي ان الماوردي قال ان قول الجمهور فيه ان المراد سواد اللون(٢٥٦) ، والذي يفهم من كلام الطبري أن وجه المبشر بالانثى يسودّ من كراهيته ذلك فيكظم الحزن ويمتلئ غما(٢٥٧) . وعند الزمخشري أنه وجه المبشر هذا يربدّ بسبب غمّه وحيائه من الناس(٢٥٨) .

وحكى القرطبي عن الزجاج أن سواد الوجه هنا لا يراد به حقيقة اللون بل هو « كناية عن غمه بالبنت ، والعرب تقول لكل من لقي

---

(٢٥٤) آل عمران /١٠٦ ـ ١٠٧ النحل /٥٨ الزمر /٦٠ الزخرف /١٧ .
(*) تفسير القرطبي ١٦٦/٤ .
(**) الكشاف ٤٥٣/١ .
(٢٥٥) النحل /٥٨ .
(٢٥٦) تفسير القرطبي ١١٦/١٠ .
(٢٥٧) تفسير الطبري ٨٤/١٤ .
(٢٥٨) الكشاف ٢٠٧/٢ .

مكروها : قد اسود وجهه غما وحزنا » (٢٥٩) . وهذا قول الراغب أيضا في الآيتين(٢٦٠) .

وما زال هذا التعبير شائعا في كلام العرب في يومنا هذا ، وهم لا يقصدون به حقيقة السواد ، بل كناية عن الشعور بالغم والحزن والخيبة والخذلان ، كما يريدون الضد من ذلك تماما في حديثهم عن بياض الوجوه .

(يولوكم الأدبار) (٢٦٣) :

التولية في هذه الآية الانصراف(٢٦٢) . والدُبُر نقيض القُبُل ودُبُر كل شيء عقبه ومؤخره وجمعهما أدبار(٢٦٣) . ومعنى الآية انهم ينهزمون ويفرون(٢٦٤) ، وانما تأتى هذا المعنى من ان المنهزم يكون ظهره في قبالة من ينهزم منه وعلى هذا فان الفعل يولوكم معناه يجعلون أمامكم. ومعنى الانصراف أو الهزيمة أو الفرار حصل من سياق الجملة كلها أي من توليتهم أدبارهم لمن يقاتلونهم وهذه كناية كما صرح بها الطبري(٢٦٥) .

وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم بصيغتين : الاولى بجعل الدُبُر أو الادبار مفعولا به للفعل (يولّ) كما في هذه الآية وغيرها. والصيغة الثانية أن يجرد الفعل من مفعوله وتأتي حال مؤكدة مشتقة من الدبر ومنه قوله تعالى : « وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم

---

(٢٥٩) تفسير القرطبي ١١٦/١٠ .
(٢٦٠) المفردات بيض .
(٢٦١) آل عمران /١١١ الانفال /١٥ـ١٦ التوبة /٢٥ الاسراء /٤٦ الانبياء /٥٧ النمل /١٠ـ٨٠ القصص /٣١ الروم /٥٢ الاحزاب /١٥ الصافات /٩٠ غافر /٣٣ الفتح /٢٢ الحشر /١٢ القمر /٤٥ .
(٢٦٢) اللسان، التاج مادة ولى .
(٢٦٣) اللسان مادة دبر .
(٢٦٤) ينظر تفسير الطبرى ٣١/٤ وتفسير القرطبي ٣٨٠/٧ .
(٢٦٥) تفسير الطبري ٣١/٤ .

وليتم مدبرين » (٢٦٦) ٠

(ضربت عليهم الذلة والمسكنة) (٢٦٧) :

المعنى ان الذلة والمسكنة قد أحاطت بهم من كل جانب ولزمتهم فلا تفارقهم اما لانهم أذلة صاغرون بطبعهم واما أنهم يفتعلون ذلك افتعالا تخلصا من أداء ما عليهم من جزية ونحوها كما يقول الزمخشري(٢٦٨) ٠ وهذا المعنى مأخوذ اما من ضرب الطين على الحائط فيلتصق به ولا يفارقه وأما من ضرب القباب على الاصح لانه أشمل وأكثر احاطة ، ولذلك عدّها الشريف الرضي استعارة(٢٦٩) من ضرب الأخبية والاروقة ٠

(ضربت عليهم المسكنة) (٢٧٠) :

ضربت عليهم المسكنة أي أحاطت بهم وشملتهم كاحاطة القبة والخباء وسكنوا فيها كما يسكن البيت(٢٧١) ٠

(لا يألونكم خبالا) (٢٧٢) :

معنى لا يألونكم لا يقصروا وهو مأخوذ من قولهم للكلب اذا قصر عن صيده ألى وكذلك البازي(٢٧٣) ٠ والخبال أصله العناء والفساد وذهاب الشيء(٢٧٤) ٠ والخبال عند ابن قتيبة معناه الشر(٢٧٥) ٠ ومعنى لا يألونكم عند الطبري لا يستطيعونكم أي لا يستطيعونكم شرا ويقول

---

(٢٦٦) التوبة /٢٥ ٠
(٢٦٧) آل عمران /١١٢ البقرة /٩١ ٠
(٢٦٨) تفسير الكشاف ١/٢٨٥ وينظر القرطبي ١/٤٣٠ ٠
(٢٦٩) تلخيص البيان /٧ ٠
(٢٧٠) آل عمران /١١٢ البقرة /٦١ ٠
(٢٧١) ينظر المصطلح السابق ٠
(٢٧٢) آل عمران /١١٨ ٠
(٢٧٣) تاج العروس مادة ألو ٠
(٢٧٤) اللسان مادة خبل ٠
(٢٧٥) التفسير لابن قتيبة ١٠٩ ٠

ان هذه البطانة لا تترككم طاقتها خبالا أي لا تدع جهدها فيما أورثكم الخبال(٢٧٦) . والاصل عند الزمخشري أن يقال ألا في الامر يألو اذا قصّر فيه وقد عدّى الى مفعولين على التضمين ، لان الاصل أن يقال لا ألوك نصحا ولا ألوك جهدا أي لا أمنعك(٢٧٨) .

والحاصل أن معنى الآية أنهم لا يقصرون في الحاق الأذى بكم بالفساد وترك الجهد في المكر بكم وخديعتكم .

(واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) (٢٧٨) :

الأنامل جمع أنملة وهي المفصل الاعلى الذي فيه الظفر من الاصبع(٢٧٩) ، والمراد بعضّ الانامل في الآية اظهار الغيظ والندم اذا اختلوا واختفوا من أعين المسلمين بعد أن كانوا أظهروا الايمان كذبا وتقية(٢٨٠) ، وعضّ الانامل هنا كناية عن اظهار الغيظ بعد أن كانوا قد كتموه ، وتعبير عما في أنفسهم من موجدة وأسىً وحزن بسبب ذلك والعرب تصف المغتاظ والنادم بعضّ الانامل والبنان والابهام ومن ذلك قول الشاعر :

فاقتل أقواما لئاما أذلة
يعضون من غيظ رؤوس الأباهم(٢٨٢)

ومثله عضّ اليدين في قوله تعالى: « ويوم يَعَضُّ الظالم على

---

(٢٧٦) تفسير الطبري ٤/٤٠ .
(٢٧٧) تفسير الكشاف ١/٤٥٨ .
(٢٧٨) آل عمران /١١٩ الفرقان /٢٧ .
(٢٧٩) اللسان مادة نمل .
(٢٨٠) ينظر ينظر تفسير الطبري ٤/٤٥٩ .
(٢٨١) تفسير الكشاف ١/٤٥٩ .
(٢٨٢) الفرقان /٢٧ .

بديه » (٢٨٢) · والكناية هنا بعّض اليدين عن الندامة(٢٨٣) أكثر منها عن الغيظ بدليل قول الظالم « يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا » ·

(ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (٢٨٤) :

الغلظة الشدة(٢٨٥) ، والاصل أن يوصف بها المحسوس الملموس كالعود والعصا · ووصف القلب بها كما في الآية معناه القاسي القلب غير ذي الرحمة ولا الرأفة(٢٨٦) مع تجهم في الوجه وقلة الانفعال في الرغائب، وقلة الاشفاق(٢٨٧) · ومعناه أيضا السيء الخلق ، وهو من المجاز كالامر الغليظ الشديد الصعب والماء الغليظ المر، والغليظ المؤكد المشدّد (٢٨٨) · ولم يحدد صاحب التاج من أي أنواع المجاز هو . وعندنا انه من الاستعارة، لان الغليظ القلب يشبه قلبه بالاشياء الشديدة القاسية كالحجر ونحوه ·

(نعاسا يغشى طائفة منكم) (٢٨٩) :

التغشية التغطية ، وغشاء كل شيء غطاؤه ، ومنه غشاء القلب والسرج والسيف(٢٩٠) · ومعنى قوله تعالى: (يغشيكم النعاس) أي يلقي عليكم النعاس أمنة بعد خوفكم من المشركين(٢٩١) · ذلك ان ما كان بهم من الخوف كان يمنعهم من النوم، فلما زال عنهم بطمأنينة من الله ناموا، ولذلك قال ابن عباس ان النعاس في القتال أمنة من الله،

---

(٢٨٣) ينظر تفسير القرطبي ٢٦/١٣ ·
(٢٨٤) آل عمران /١٥٩ ·
(٢٨٥) اللسان مادة غلظ ·
(٢٨٦) تفسير الطبري ٩٩/٤ ·
(٢٨٧) تفسير القرطبي ٢٤٨/٤ ·
(٢٨٨) التاج مادة غلظ ·
(٢٨٩) آل عمران /١٥٤ الانفال /١١ ·
(٢٩٠) ينظر اللسان والتاج مادة غشا ·
(٢٩١) ينظر تفسير الطبري ١٢٩/٩ ·

وفي الصلاة وسوسة من الشيطان(٢٩٢) .

والاستعارة واضحة هنـا، فكأنما النعاس غطـاء يلقى على المؤمنين يتغشون به كما يفعل النائم، وذلك أدل على هدأة الروع وذهاب الخوف.

---

(٢٩٢) ينظر الكشـاف ٢/١٤٧ .

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم ٠
٢ ـ تاج العروس : الزبيدي، دار مكتبة الحياة ٠ بيروت ٠
٣ ـ تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة، المكتبة العلمية، المدينة المنورة الطبعة الثالثة ١٩٨٠ ٠
٤ ـ تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) الطبري ٠
٥ ـ تفسير غريب القرآن : ابن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية بيروت ٠
٦ ـ تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) القرطبي، مصورة عن طبعة دار الكتب ـ القاهرة ١٩٦٧ ٠
٧ ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضي ـ مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٥ ٠
٨ ـ شرح ابن حقيل، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٦٥ ٠ مطبعة السعادة ـ مصر ٠
٩ ـ الكتاب: سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون ـ دار المعارف مصر ١٩٦٦ـ١٩٧٧ ٠
١٠ـ الكشاف: الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٤٨ ٠
١١ـ لسان العرب: ابن منظور، مصورة عن طبعة بولاق ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ٠
١٢ـ مجمع الامثال : الميداني، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، الطبعة الثانية ١٩٥٩ المكتبة التجارية، مصر ٠
١٣ـ المستقصى فى‌أمثال العرب: الزمخشري ـ دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٧ ٠
١٤ـ المصطلح اللغوي في القرآن الكريم (بحث) د٠ محيي‌الدين توفيق ابراهيم مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٣٧ الجزء الرابع ١٩٨٦٠
١٥ـ معاني القرآن: الفراء ـ دار الكتب المصرية، الطبعة الاولى ١٩٥٥ ٠
١٦ـ معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس ـ دار احياء الكتب العربية، الطبعة الاولى القاهرة ١٣٦٦ ١
الطبعة الاولى القاهرة ١٩٦٦ ٠
١٧ـ المفردات في غريب القرآن ٠ الراغب الاصبهاني ٠ مكتبة الانجلو المصرية ٠